

وغابت
الشمس
ولم
يظهر

Looloo القمر

www.dvd4arab.com

مسكينة غريب

احسان كبر القوس

(١)

جلس رفعت البيومي على مقعد وثير في شقته الرائعة بالعمارة
الفخمة المظلة على النيل في انتظار أن يقدموا له الشاي .. شاي الساعة
الخامسة .. إنه منذ سنوات طويلة تعود على شاي الساعة الخامسة
حتى أصبح يربط كل مواعيد عمله بشاي الساعة الخامسة .. إن
بريطانيا أقامت كل مجدها وكل عظمتها وكل تقدمها الفكري على
أساس تقديس تناول شاي الساعة الخامسة .. لاشك أن تناول الشاي
وفي هذا الموعد بالذات ينشط العبقرية ويهبها موهبة البحث عن
العظمة .. ولو أنه بدأ طريق العظمة من قبل أن يتعود على شاي
الساعة الخامسة ..

وابتسم رفعت البيومي ابتسامة صغيرة ترسم صورة عظيمته وهو
ينظر إلى الخادم يدخل إليه حاملا معدات الشاي .. إنه ليس خادما ..

إنه رجل مهيب محترم يلبس بدلة كاملة رسميه فوق قبض أبيض منشي ومعه رباط عنق أسود معلق حول عنقه .. إنه « بتلر » كما يسميه الانجليز وليس في اللغة العربية كلمة تعبر عن صفة البتلر لأن العرب لم يعرفوا في كل تاريخهم نظام البتلرات .. إنه الرجل الذي يعتبر مسئولاً عن خدمة اللورد الانجليزى .. أو خدمة أصحاب السيادة على الشعب الانجليزى .. وهو قد وصل في عظمته الى مرتبة اللورد .. بل إن أصدقائه الانجليز عندما يأتون لزيارته يذهلون بكل التقاليد وإجراءات الخدمة التي وضعها داخل بيته .. ويذهلون أكثر وهم يطوفون بعيونهم على قطع الأثاث والتحف المنثورة واللوحات المعلقة .. إنه بيت أفخم وأروع من بيت أى لورد انجليزى. لقد دخل هو شخصياً بيوت كثير من اللوردات وتعهد أن يكون بيته أفخم من أى بيت دخله .. صحيح أنه تأثر بالذوق الانجليزى ولكنه لاشك قد ارتقى حتى بالذوق الانجليزى ..

وانحنى « البتلر » يرتب أمامه معدات الشاي ثم صب له في الفنجان وانحنى انحناءة كبيرة وانسحب متفهماً بظهوره من أمامه والبيومى يودعه هامساً كأنه لا يهيمه أن يسمعه : « يا لورد .. متشكر يا جلال .. »

ورفع فنجان الشاي إلى شفثيه ثم مد أصابعه إلى العلبة الخشبية التي أمامه وكأنها تحفة وأخرج سيجاراً طويلاً .. إنه سيجار هافانا

ماركة منت كريستو .. إن ثمن هذا السيجار في مصر الآن خمسة جنيهات .. السيجار الواحد بخمسة جنيهات .. من كان يصدق أنه سيصل إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن يحرق خمسة جنيهات بين أصابعه وينفث دخاناً .. ولكنه لم يبدأ بتدخين السيجار .. لقد بدأ أولاً بتدخين « البايب » .. كان البايب هو الذي يرمز إلى الشخصية الانجليزية وعظمتها التي يطمع في الوصول إليها .. ولكنه لم يتحمل تدخين البايب طويلاً فانتقل الى تدخين السيجار .. وكان قد اكتشف أنه حتى اللوردات الانجليز يدخنون السيجار في المجتمعات العامة إظهاراً لعظمتهم وأرستقراطيتهم .. إن « البايب » بالنسبة لهم تدخين شعبي أما السيجار فهو خاص بأفواه العظماء .. وهو قد وصل منذ زمن بعيد إلى مرتبة العظماء ..

وعاد بين رشقات الشاي ودخان السيجار يتذكر المعركة الجديدة التي يخوضها .. ويتسم ساخراً .. إن حياته كلها معارك منذ أن كان لاشيء .. منذ أن كان ضيقاً مجهولاً غلبانا ابن المزارع المتواضع عباس أحمد عباس البيومى .. لقد اختصر اسمه بعد أن بدأ يعتمد على نفسه .. وأصبح رفعت البيومى فقط .. وقد أثبت منذ صباه أن قيمة الإنسان لا تقاس بأصله وفصله ولكن تقاس بذكائه .. الذكاء وحده .. ولذلك قد تجد أولاد عظماء يصبحون نكرات .. لاشيء .. لأنهم ليسوا أذكاء .. وأولاد من طبقة عادية ومن أهالي مجهولين يصبحون كل شيء ويصلون إلى القمة لأنهم أذكاء ..

والذكاء لا يورث .. إن ما وصل إليه بذكائه لم يستطع أبوه أن يصل إليه .. لا .. لاشك أن بذور الذكاء تورث وإن كانت تختلف في نسبة نضوج هذه البذور .. فقد كان أبوه في حياته وفي عمله هو الذي أوحى إليه بالطريق الذي اختطه لنفسه ..

وعلت شفتيه الرفيعتين الواسعتين ابتسامة هادئة ورفع أصابعه يهرش في شعر رأسه الأكرت وهي العادة التي لم يستطع أن يتخلص منها .. وعاش في ذكرياته .. وهي عادته كلما خلا لنفسه .. يتذكر وهو فخور بما يتذكره .. ولكنها ذكريات لا تتردد إلا بينه وبين نفسه ، ولا يسمح لأحد آخر أن يرددها معه أو يذكره بها ، بل إنه يبدو كأنه ألغاهها وحرمها على الناس وجعل كل فقرة منها كأنها سر الأسرار .. ولكنه يتمتع بها وحده كلما خلا لنفسه .. ويراجعها فخوراً بنفسه كأنه يستعرض فيلماً سينمائياً يروي قصة حياته .. لا .. قصة ذكائه .. فحياته كلها تنحصر في ذكائه ..

لقد ولد في أوائل العشرينات .. أي منذ أكثر من ستين عاماً .. وولد في قرية كفر البطيخ .. وكان والده يملك خمسة أفدنة هناك ويزرعها بالبطيخ فعلاً .. ولاشك أن والده كان مزارعاً فالخا استطاع أن يكسب من زراعة البطيخ حتى أنه انتقل بالعائلة في منتصف الثلاثينات إلى القاهرة لكي يوفر لأولاده دخول المدارس الابتدائية ويوفر لنفسه احتياجات لا تتوفر له في كفر البطيخ .. واستأجر بيتاً فقيراً في إحدى حواري الدراسة .. وألحق ابنه رفعت

في مدرسة السلحدار الابتدائية .. إن رفعت له خمسة إخوة .. ولدين وثلاث بنات .. ولكن كل إخوته ليس لهم أثر في حياته .. إنهم حتى الآن يعيشون على ما يمد لهم به بفضل غناه ونفوذه .. هو وحده الذي ينفرد ويمتاز عنهم بكل ما وصل إليه .. إن بذور الذكاء لم تنضج في عقولهم كما نضجت في عقله ..

وقد بدأ وعي رفعت يفتح منذ وصل إلى القاهرة .. إن القاهرة شيء آخر غير كفر البطيخ .. كل هذا ليس في كفر البطيخ .. ودفعه طموحه وهو لا يزال في صباه إلى أن يخرج بنفسه من حي الدراسة .. ويحاول أن يكتشف القاهرة .. إنه عالم كبير .. كيف يعيش في هذا العالم معتمداً على مسئولية أبيه عنه وبما ينفقه عليه حتى لو كان أبوه يعتبر من أغنياء كفر البطيخ أو على الأقل من المستورين الذين استطاعوا أن ينتقلوا بعائلاتهم إلى القاهرة .. إلى الحي الفقير من القاهرة .. ربما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يستمر في دراسته إلى أن يصبح شيئاً غير أبيه .. مهندساً .. طبيباً .. ضابطاً من ضباط الجيش .. إنه يومها يستطيع أن يصل إلى أرقى مما وصل به إليه أبوه .. وسيكون مهندساً .. لا .. طبيباً .. لا .. ضابطاً .. ولكن متى يمكن أن يحقق ذلك من خلال دراسته في المدارس وبعد أن يحقق حلم العائلة كلها بأن يدخل أحد أفرادها إلى الجامعة .. لن يصل إلا بعد عشر سنوات .. أكثر .. وربما خمسة

عشر عاما .. وحتى بعد خمسة عشر عاما هل يمكن أن يكون شيئا ..
من يدري .. لعله لن يصل أبدا ..

وهو في الوقت نفسه يحب أباه ويقدره ويحاول دائما أن يكتشف
كيف يعمل وكيف يكافح لزراعة البطيخ حتى استطاع أن ينتقل
بهم إلى القاهرة .. وقد اكتشف أن أباه لاشك يعتبر خبيرا في
زراعة البطيخ .. حتى أنه لو كان في بلد متقدم لاستعين به لزراعة
بطيخ مصر كلها .. لم يكتشف ذلك وهو صغير ولكنه كلام كان
يقوله لنفسه بعد أن كبر .. ولكنه اكتشف أيضاً أن البطيخ يشغل
كل حياة والده .. إنه يبذر البذور ثم يترك عددا من الفلاحين
ينفذون أوامره ومعظم نشاطه يبذله بعيدا عن الحقل .. إنه صديق
العمدة حتى لا يكاد يفارقه .. وهو أيضا صديق لمأمور المركز ..
حتى أنه أسماء رفعت تيمنا باسم مأمور المركز في فترة ولادته .. بل
إنه عرف أن والده وصل إلى المديرية وقابل المحافظ أكثر من مرة ..
وكان والده يتفاخر بصداقته لكل هؤلاء .. صداقة الحكومة ..
وربما كانت قيمته بين كل أهل البلد يستمدّها من هذه الصداقات ..
وكان رفعت منذ طفولته وهو جريء في تبادل الحديث مع أبيه ..
وكان أبوه يميل إليه أكثر من إخوته فرحا بجرأته وبأنه دونهم
لا يكف عن الكلام .. ويستطيع أن يتحدث طويلا إذا قرر الكلام
ويصمت طويلا إذا قرر الصمت .. وكان أبوه يتحدث من هوا
عن زيارته للمديرية عندما سأله رفعت ..

— والبطيخ يا أبي ؟!

وقال أبوه ضاحكا :

— البطيخ يا بني لا يعطي الخير الا إذا كان مستندا على ظرّة
الحكومة .. الأرض ليس لها قوة الا قوة الحكومة ..

وتعلم رفعت أن أباه لا يكسب من زراعة البطيخ الا مستندا على
صداقة الحكام .. بل إنه عرف فيما بعد أن الخمسة أفدنة التي
يملكها أبوه كانت ثلاثة فقط واستطاع بصداقاته أن يضم إليها فدانين
مما أثار عليه أهل البلد ولكنها ثورة لم تنزع شيئا واحدا من الفدانين
وما لبثت أن خمدت .. وقد اكتشف رفعت أن أهل البلد لا يحبون
أباه وإن كانوا يخافونه ولا يملكون الا التظاهر باحترامه .. حتى
أصدقاؤه من العيال الصغار في البلده كانوا أحيانا كثيرة يتجمعون
في لهوهم ضده ثم لا يلبثون أن يهربوا منه وكأنه ابن العمدة ..

ولكن صداقات أبيه للحكومة في كفر البطيخ لا تساوي شيئا
في القاهرة .. لا أحد يحس به هنا .. لافي الحارة ولا في المدرسة ..
إن معه في المدرسة طالبا يقولون أنه ابن رئيس الديوان الملكي ..
إن مدرسة السلحدار رغم أنها مقامة في حي شعبي الا أنه كان من
المعروف عنها أنها مدرسة حاسمة لذلك كان بعض العظماء يرسلون
إليها أبناءهم .. وحضرة الناظر يسأل عن ابن ناظر الخاصة ويستدعيه
إلى مكتبه كل يوم .. وكل المدرسين يحادثونه في رقة وتدليل رغم

ما كان معروفا من غلظه وقسوة في ضرب التلاميذ... لم تمتد يد أبدا على ابن ناظر الخاصة.. حتى الطلبة كانوا ينظرون اليه من بعيد كأنه من عالم محرم عليهم، ويطيرون بالسعادة إذا أقدم مرة ليلعب معهم في حوش المدرسة.. وأن كانوا من ورائه يسخرون منه ويطلقون عليه شتائمهم.. وكان معه طالب آخر قيل أنه ابن وزير.. إنه يلاقى نفس الرعاية والحب من حضرة الناظر والمدرسين وإن كان هذا الطالب أقل تكبرا من ابن رئيس الديوان، والناظر والمدرسين أقل تدليلا له.. وهو.. رفعت.. إنه لا يساوى شيئا ولا أبوه يساوى شيئا.. ويجب أن يكون شيئا أكبر من ابن ناظر الخاصة وابن الوزير.. مهما نحاول أن يفعل كأبيه ويصادقهما باعتبارهما من أبناء السلطنة.. أبناء الحكومة.. بل كان يكرهما ويحقد عليهما وتدفعه أحلامه لأن يكون أهم منهما وأعظم..

ودفعته أحلامه وهو لا يزال في المدرسة الابتدائية إلى إدمان قراءة الصحف.. وكان يجد دائما طريقا للحصول عليها.. وكان يقرأ كأنه يبحث عن شيء.. يبحث عن القوة التي يستطيع أن يستند عليها حتى يصل إلى أكثر مما وصل إليه أبوه باستناده على قوة الحكومة.. وكان في الوقت نفسه قد استطاع التقرب من شبان حي الدراسة الأكبر منه وكان يجلس بجانبهم يستمع إلى أحاديثهم السياسية وإلى أسرار التنظيمات التي يعدونها للقيام بمظاهرات ضد الإنجليز..

وعقله لا يكف عن التفكير في البحث عن الطريق الذي يؤدي به إلى الاستناد على القوة.. إنه ليس مفتنعا بالاستناد على قوة الحكومة.. أن الاستناد على قوة العمد والمأمور والمحافظ يكفي إذا كان يقيم في كفر البطيخ.. ولكن الاعتماد على الحكومة وهو في القاهرة صعب.. لا يمكن أن تكون له قيمة بالنسبة للحكومة إلا إذا كان من أبناء الحكام.. حتى الاعتماد على القصر الملكي.. لا يمكن أن يحقق له طريقا سهلا.. وهو لا يدري كيف يصل إلى القصر.. ولكن ما هي القوة الحقيقية في مصر.. ما هي القوة التي تحكم ويستطيع أن يحكم معها إذا وصل إليها.. إنها قوة الإنجليز.. أن كل الناس تكره الإنجليز ويثورون ضدهم.. ولكن ربما كان هذا يجعل الطريق سهلا أمامه للتقرب إليهم والاعتماد على قوتهم إذا استطاع أن يكسب ثقتهم..

وظل هذا الرأي يتمكن منه دون أن يفصح عنه لأحد ولا حتى لأبيه.. بل إنه كان يعتمد أن يدارى هذا الرأي بأن يتقرب أكثر إلى شبان حي الدراسة الثوار، واستطاع معهم أن يتقرب إلى عدد كبير من تنظيمات الثوار بل إنه ذهب إلى بيت الأمة بين المتظاهرين.. إلى أن حصل على الشهادة الابتدائية..

إنه لا يريد أن يكمل التعليم العادي.. لا يريد أن يدخل المدرسة الثانوية.. ولا للجامعة بعد عمر طويل.. لقد قرر أن هذا الطريق

لن يؤدي به إلى شيء من أحلامه .. ولا يستطيع أن ينتظر عشر سنوات أو خمس عشرة سنة حتى يصل أو لا يصل .. وحتى وصول فلن يكون أكثر من موظف بين مئات الموظفين وإن كان سيُعتبر موظفا محترما ..

وكان أبوه حائرا فيه بعد أن نال الابتدائية .. هل يسعى لتعيينه موظفا في المديرية .. لا شك أن المحافظ لن ينجيب أمله وسيعين ابنه .. وهو بذلك سيصبح نسبيا للحكومة وله ابن فيها .. ولكن أحاسيس الأب تجعله يقبل أن يتحمل عبء ابنه أكثر ويتفق عليه حتى يتم تعليمه الثانوى .. إنه يستطيع بشهادة البكالوريا أن يضعه في وظيفة أكبر .. ولكنه فوجيء بابنه رفعت يرفض الالتحاق بمدرسة ثانوية ويقول أنه سيلتحق بالمعهد البريطانى ليتعلم اللغة الانجليزية ..

وصاح الأب في دهشة :

— ماذا تفعل باللغة الإنجليزية يا ابنى ؟

وقال رفعت في إصرار :

— إن اللغة الإنجليزية تفعل كل شيء .. لو زرعنا البطيخ باللغة الإنجليزية لكنا الآن سادة البلد ..

وانطلق رفعت يتكلم طويلا كعادته عندما تدفعه مصلحة إلى الكلام .. إلى أن أقنع أبوه بأن يتركه يلتحق بالمعهد البريطانى .. الواقع أنه لم يقتنع فانه لم يفهم سر إصرار ابنه على الالتحاق بهذا

المعهد .. ولكنه استسلم إزاء هذا الإصرار .. وربما إذا لم يكن الأب قد استسلم لوجد رفعت طريقا للالتحاق بالمعهد حتى لو اضطر أن يهرب من العائلة .. إلى هذا الحد كان مصرا ..

والتحق رفعت بالمعهد البريطانى وكان فيها في استيعاب اللغة الإنجليزية حتى بدا كأنه طالب عبقرى بين طلبة المعهد .. وقدره المدرسون الانجليز وأولوه اهتمامهم .. وكان هو من الذكاء والنشاط وعموخته في الكلام الطويل واختيار ما يقول بحيث استطاع أن يحيل هذا الاهتمام إلى صداقة شخصية بينه وبين المدرسين وخصوصا مسر جولدمان .. لقد كان أكثرهم طيبة وبساطة وكان يبدو كأنه في حالة سكر دائم .. إن رائحة الخمر تحيط به وتنطلق من بين شفثيه كأنها تعبق كل أنفاسه .. يتنقث خمر .. وقد توطدت الصداقة بينه وبين جولدمان حتى أنه كان يصحبه معه بعد انتهاء الدراسة إلى الحارة القريبة من المعهد ويجلسه بجانبه وهو يتناول الخمر .. والغريب أن جولدمان لم يكن يدعو رفعت إلى تناول الخمر معه بل لم يدعه حتى إلى رشفه ماء .. إنه يضعه بجانبه يتبادل معه الحديث الطويل والنكات دون أن يكرمه بشيء .. لعل هذه هي عادة الانجليز .. على كل أن يعتمد على نفسه ويتحمل مسئولية إمتاع وإكرام نفسه .. وعلى كل فلم يكن رفعت يريد أن يذوق الخمر .. إنه يتأفف منها ربما بحكم البيئة التى نشأ فيها .. حتى بعد أن كبر وأصبح من الأثرياء لم يكن يحب الخمر إنما يضعها أمامه ويذوق رشفه أو رشفتين مخرد مجارة المظاهر الاجتماعية للطبقة الراقية ..

وكان كل ما يدور في رأس رفعت هو كيف يستغل الصداقة التي اكتسبها مع مستر جولدمان وغيره من المدرسين الإنجليز للوصول إلى صداقة شخصيات إنجليزية أكبر .. للوصول إلى المجتمع الإنجليزي الحاكم .. والشهور تمضي وهو لا يستطيع الوصول إلى شيء .. ولكنه لا ييأس ..

وكانت ساعات الدراسة في المعهد البريطاني قصيرة .. ساعتان أو ثلاثا .. وفي أيامه فراغ واسع كان يعتمد أن يقضيه مع شلل الشبان السياسيين وأصبح كأنه واحد منهم مشترك بين كل تصرفاتهم السياسية ويطلع على كل أسرارهم .. لقد استطاع أن يكسب صداقة هؤلاء الشبان كما كسب صداقة الإنجليز .. وهم يعلمون أنه طالب في المعهد البريطاني .. إنه يتعلم الإنجليزية ليحارب الإنجليز بلغتهم .. كانوا مطمئنين إليه ..

وفي يوم سمع عن اعداد وطني عاجل .. سر من الأسرار .. واتخذ قرارا .. كان أول قرار يتخذه بالنسبة للمستقبل الواسع الذي عاش فيه بعد ذلك ..

وذهب إلى مكتب المستر جولدمان في المعهد البريطاني وقال له في بساطة :

— ماذا ستفعلون غدا ..
وقال جولدمان من خلال أنفاسه المخمورة :

— ماذا سيحدث غدا ؟

وقال وهو لا يزال مدعيا البساطة وسلامة النية وكأنه لا يسعى إلى شيء :

— ألا تعلم .. لقد عرف الشبان أن المفاوضات بدأت تفشل في لندن وقرروا القيام بثورة عنيفة يهاجمون بها السفارة البريطانية بل كل ما هو بريطاني في مصر، بل قد يهاجمون هذا المعهد .. ألا تعلمون ؟

وسأله جولدمان في جزع :

— من أين عرفت ؟

وقال رفعت فورا :

— كل قادة الشباب أصدقائي ..

ونظر إليه جولدمان نظرة حائرة وقال :

— انتظر .. اجلس هنا ..

ثم رفع سماعة التليفون وسمعه رفعت وهو ينقل ما قاله له .. ثم أبعد سماعة التليفون عن أذنه وقال لرفعت :

— هل تستطيع أن تذهب للقاء أحد ؟

وقال رفعت دهشا :

— لقاء من ؟

وقال جولدمان بسرعة :

— إنه صديق يهمني لقاءك .. يريد أن يسمع منك ما قلته لي ..

وفكر رفعت بسرعة .. لاشك أنها شخصية هامة التي تريد لقاءه .. شخصية أحد المسؤولين .. إن هذا ما كان يطمح فيه .. وقال وهو يدارى حماسه :

— مستعد أن أذهب ..

وقال جولدمان في التليفون :

— سيأتى اليك ..

ووضع سماعة التليفون وعاد يلتفت الى رفعت قائلا :

— إنه مستر مالكولوم .. وستقبله في مكتبه بالسفارة .. ولا تدخل من الباب الرئيسى ولكن من الباب الجانبى .. وقدم هذه البطاقة وأنت تدخل ..

وأخرج من جيبه بطاقة شخصيه تحمل اسمه وكتب عليها كلمتين .. « للقاء مستر مالكولوم » .. ثم أعطاه لرفعت وهو يقول مبتسما :

— لا تتأخر .. أسرع ..

ورفعت بدأت تصيبه نوبة من الدھول .. كيف يدخل السفارة البريطانية .. لو رآه أحد من الشبان فلن يستطيع أن يجد تبريرا لدخوله .. وقد يقتلونه .. وهو فى نفس الوقت يستعين بكل أعصابه ليقاوم دھوله .. ليجازف .. إن الحياة تبدأ بالمجازفة .. كل الذين

وصلوا الى ما يريدون بدأوا بالمجازفة .. لماذا يبدأ جباناً ويتصور أنهم سيروونه ويهمونه ويقتلونه .. ليجازف ..

وذهب إلى السفارة البريطانية سائرا على قدميه وهو يتلفت فى كل خطوة حرصا على ألا يفاجئه أحد ويتبعه .. وعند السفارة سار على الرصيف المقابل حتى تأكد من أن أحدا لن يراه يدخل .. ودخل وكان تقديم بطاقة جولدمان كافيا ليقودوه مباشرة الى مكتب مالوكولم ..

واستقبله مالوكولم بنظرة ثابتة جادة كأنه يحاول أن يصل بعينه الى داخل رأسه .. ثم ابتسم له ابتسامة كبيرة .. وقال ضاحكا :

— ماذا قلت لجولدمان ... كان يحدثنى كأنه يرتعش ..

وأعاد عليه رفعت ما قاله لجولدمان .. ولكن مالوكولم أخذ يسأله .. ويسأله .. عشرات من الأسئلة .. ورفعت يعتمد أن يبدو هادئا وبحيب .. وقد كان يتمنى ألا يجيب على كل الأسئلة .. ولو أنه كان يحاول أن يثبت أنه لا يحتج شيئا عن الانجليز .. واكتفى بأن يجيب ببعض ما يعرفه لا بكل ما يعرفه ..

وطالت المقابلة أكثر من نصف ساعة أثبت رفعت لنفسه خلالها انه أصبح يجيد اللغة الانجليزية .. إنه يتكلم بها كأنها لغته .. وأخيرا قال مالوكولم :

— كان لدينا بعض المعلومات ولكن معلوماتك نورتنا أكثر ..
وسألقاك بعد غد ..

وقال رفعت فوراً وبكلمات مرتعشة :

— لا أستطيع أن أراك في السفارة .. إن دخول السفارة يعرضني
لخاطر لا أتحمّلها ..

وقال مالوكولم مبتسماً :

— لقد التقيت بك هنا لأنى فوجئت بك ولأن الموضوع فرض
لقاء فوراً ولكن فى المرة القادمة سنلتقى فى بيتى فى المعادى .. بعد
غد الساعة السابعة .. واطمئن ..

وأعطاه مالوكولم بطاقته التى تحمل عنوان بيته وهو يودعه حتى
باب مكتبه .. وخرج من السفارة كما دخل وهو يتطلع حوله خوفاً
من أن يراه أحد .. وسار مبتعداً وقد بدأ يحس كأنه يلوم نفسه ..
هل هذا هو الطريق الوحيد الذى يستطيع أن يصل به إلى أحلامه ..
أن تصبح مهمته هى نقل الأخبار إلى الانجليز .. هل يرضى لنفسه
أن يكون جاسوساً .. عميلاً .. ولكن انه لم ينقل إلى الانجليز أسراراً
إنها أخبار عامة يمكن أن ينشرها أى صحفى فى جريدته إذا علم بها ..
أخبار الحركة الوطنية .. أنه ليس جاسوساً ولا عميلاً انه مجرد صحفى
ينشر الأخبار وكأنه اختار أن ينشر أخباره فى جريدته انجليزية ..
لا .. لا .. لن يلوم نفسه ..

وعندما وصل الى البيت نقل عنوان مسنر مالوكولم إلى ورقة ثم مزق
البطاقة ودخل بها المطبخ وأحرقها .. هذا أضمن ..

وقد قامت المظاهرات فعلاً فى اليوم التالى .. مظاهرات ضخمة
عنيفة .. ولكن السفارة البريطانية كانت قد حصنت نفسها بفرق
البوليس علاوة على فرق الجيش البريطانية فلم تصيبها ولا طوبه ..
وكل المؤسسات البريطانية كانت قد حصنت نفسها فلم يصيبها شئ ..
كل بريطانيا لم يصيبها شئ من هذه المظاهرات .. كل ما أصيب هى
ما تملكه مصر علاوة على من قتل وأصيب من الشبان المصريين ..
ورفعت يتبع الأخبار بلا مبالاة .. إن ما حدث هو ما يحدث لكل
مظاهره تقوم فى مصر .. حتى لو كان المتظاهرون قد استطاعوا أن
يصلوا إلى السفارة والمؤسسات البريطانية فإذا كان يمكن أن يحدث ..
كانت القضية الوطنية كلها ستزداد انهماكاً والاحتلال يزداد تمكناً
وعنفاً .. هذه هى آراؤه السياسية .. إنه يعتبر نفسه معتدلاً حتى مع
حرصه على صداقة المتطرفين ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لقاء مالوكولم .. وقد تعمد أن يحمل إليه
بعض الأخبار الجديدة .. يريد أن يقنعه بقيمته الإخبارية .. واستقبله
مالوكولم بترحاب وحاول أن يقدم له كأساً ولكن رفعت اعتذر
فقدم له كوباً من الشاي البارد .. لم يكن يعلم أن الشاي يقدم بارداً
أيام الحر .. لقد أصبح فيما بعد من هواة الشاي البارد .. واعترف
له مالوكولم بأن معلوماته كانت مهمة فى مواجهة المظاهرات ..

وبدأ يناقشه في الأخبار الجديدة التي حملها إليه .. ثم بدأ ينظم معه طريقة العمل .. وأحسن كأن بريطانيا أعلنت حاجتها واعتمادها عليه .. إنه يستطيع أن يتصل بالوكولم كل يوم وفي أي ساعة .. ويستطيع أن يكتب المعلومات على ورقة يقدمها إليه اختصارا للوقت .. و .. و .. إنه وصل معه إلى أدق تفاصيل العمل .. وعندما وقف لينصرف مد إليه مالوكولم يده بورقة مالية وهو يقول ضاحكا :

— مجرد مصاريف انتقال ولا أريد أن أعتبرها أتعابا ..

ونظر رفعت إلى الورقة المالية .. إنها عشرة جنيهات .. إنها ضعف ما يدفعه أبوه كمصاريف لم كل شهر .. وقد كان الجنيه أيامها له قيمة تيز وترن .. ولكنه فكر بسرعة .. وذكأؤه يدور داخل رأسه كالدينامو .. لا .. لن يقبل .. حتى لو كانت العشرة جنيهات لها قيمة تصلح حاله فلن يقبلها .. وألح عليه مالوكولم ولكنه أصر على الرقص .. إلى أن سأله مالوكولم :

— ماذا تفعل بجانب دراستك في المعهد ؟

وقال رفعت وكأنه متعال :

— لا شيء .. إني أنتظر أن أنتهي من دراستي حتى أبحث عن عمل ..
وقال مالوكولم في لهجة الرئيس المسئول :

— إن المعلومات السريعة التي جمعتها عنك تقول أنك لست غنيا ولا من عائلة غنية ..

وقال رفعت وهو يمثل دور المتعالي :

— هذا صحيح .. ولكني أعمل معكم جبا فيكم لا لأني فقير ..

وهز مالوكولم رأسه مبتسما كأنه يفهم :

— على كل حال .. سنرى ..

وخرج رفعت وهو حائر مع ذكائه .. لقد رفض العشرة جنيهات حتى يفرض على الإنجليز أن يقدرونه بثمن أكبر .. إنه ليس مجرد شحاذ يريد أن يأكل .. إنه صاحب مشروعات كبيرة وإن كانت كلها لا تزال مجرد أحلام .. فهل يصل مع الإنجليز إلى ما يريد .. على كل حال فهو لن يتركهم مهما كان ما يصل إليه معهم .. ومالوكولم يريد أن يكتب المعلومات التي يقدمها اختصارا للوقت .. هل يكتبها بخط يده .. إن كل ورقة منها تصبح وثيقة اتهام وإدانة له .. وكان يمكن أن يقدمها مكتوبة لو كتبها على الآلة الكاتبة حتى لا تكون وثيقة ضده .. ولكنه لا يكتب على الآلة الكاتبة .. وليس لديه آلة يملكها ويشحن بها .. لماذا لا يتعلم الآلة الكاتبة .. لماذا لا يشتري آلة؟ ولكن كيف .. من أين .. إن أباه لا يمكن أن يدفع له مليا واحدا زيادة عما يدفعه ..

ومضت ثلاثة أيام وفوجئ بعدها بمسّر جولدمان يستدعيه
ويقول له من خلال ابتسامة واسعة تنفث رائحة الخمر :

— مضى أكثر من يوم وأنا أبحث عنك .. إني أحل لك مفاجأة.

وقال رفعت ضاحكا :

— كل مفاجأتك ضحكات ..

وقال جولدمان :

— هذه المفاجأة ستجعلك أسعد مخلوق في الدنيا .. لقد قرر

المعهد اختيار أحد الطلبة للإشراف وترتيب أوراق الطلبة الآخرين
وقد وقع الاختيار عليك .. هل تدري كم تأخذ أتعابا لهذه المهمة ..

ثلاثون جنيا في الشهر .. تصور .. سيكون في يدك ثلاثون جنيا
كل شهر ..

واهتز رفعت من فرحته .. إن بطيخ كفر البطيخ لا يمكن أن

يدر على أبيه ثلاثين جنيا في الشهر .. لقد استطاع في أول خطوة

أن يكون أغنى من أبيه .. وبسرعة اكتشف أن ليس هناك عمل له

عما قاله جولدمان .. وليس مكتب عمل ولا مواعيد عمل .. بل

العمل الذي قالوا له عنه لم يعلن .. أصبح كأنه سر لا يفصح ..

تأكد رفعت من أنه كان ذكيا عندما رفض العشرة جنيات التي

قدمها له مالوكولم .. لقد أصبحت ثلاثين جنيا .. يقبضها في ظرف
مغلق يقدمه له جولدمان دون أن يذهب إلى إدارة المعهد ..

وكان أول ما استغل فيه المبلغ الذي وصل إليه هو أن التحق

بمعهد لتعليم الكتابة على الآلة الكاتبة .. وبدأ يتعلم الكتابة بالانجليزية.

وعندما بدأ يتفوق فيها زاد من تعلم الكتابة على الآلة بالحروف

العربية .. ولكنه عندما اشترى آلة كاتبة بالتقسيط اشترى آلة

بحروف انجليزية ..

وبعد شهر استطاع أن يقنع والده بأن ينتقلوا من سكن

الدراسة .. أنه حتى لم يعد يلحق به بعد أن وجد عملا بمرتبة كبير

في شركة أجنبية .. أنه يربح الآن .. واستسلم والده وتركه يتقلهم

إلى بيت في حي الظاهر ..

إنه حتى اليهود .. ولكن اليهود هم الطائفة الراقية في مصر ..

طائفة رجال الأعمال ..

وايتسم رفعت وهو يتذكر انبهاره وانهار إخوته عندما انتقلوا

إلى حي الظاهر .. لقد خيل إليهم أنهم ارتفعوا إلى وجه الدنيا رغم

أن البيت الذي سكنوه كان في حارة .. لم يكن أيامها يحلم بأنه سيعيش
في مثل هذا البيت .. بيت اللوردات .. المطل على النيل ..

ودخل البتلر إليه فدعوه إلى تناول طعام العشاء .. إن العشاء
في الساعة الثامنة والنصف كما تفرض التقاليد الإنجليزية .. وهي
ساعة صحية .. تستطيع أن تأكل وتهضم وأنت تحتفظ بكل نشاطك لا
أن تأكل وتنام كما يفعل الأغبياء ..

وقام بحمل ذكرياته معه إلى مائدة الطعام ..

(٢)

واستطرد رفعت اليومى يسترجع ذكرياته وبين شفثيه هذه
الابتسامة التي تقطر غرورا وتباهيا بذكائه الذي يفخر به دائما
ويهيء نفسه به ..

وقد مضى أكثر من عامين وهو ينسب نفسه طالبا في المعهد
البريطاني وعندما انتهت مدة التعليم وقد نجح فعلا وكان أول الناجحين
ادعى أنه يعد لتقديم شهادة ماجستير مترسل إلى لندن ويمتحن فيها
هناك .. وفي نفس الوقت كان يوسع اتصالاته بكل التجمعات
الوطنية والسياسية على اختلاف أنواعها وألوانها .. إن له أصدقاء
بين الشبان الوفديين والسعديين والدستوريين .. وأصدقاء من
الإخوان المسلمين والشيوعيين .. بل إنه اكتشف أن القصر الملكي
أقام تنظيما وطنيا لحسابه الخاص يتظاهر بالدعوة إلى الثورة .. واستطاع

أن يصادق بعض شبان هذا التنظيم دون أن يصارحهم بأنه يعرف عنهم شيئا .. إنه فقط شاب وطني متحمس .. وكل ذلك دون أن ينسبه واحد من هذه الجماعات إلى الآخر .. ودون أن يشير الشك في نيته .. وعلاقته بالشبان أدت إلى أن أصبحت له علاقات بالقادة والزعماء .. كان يذهب مع الشبان للاجتماع بهم ويسمع كل توجيهاتهم ويكتشف نياتهم السياسية .. وكان يستطيع دائما أن يجد سؤالا أو اثنين ويذهب وحده للقاء زعيم أو شخصية بارزة ليسأل ويتطور بالسؤال حتى يكتشف مزيدا من الأسرار .. ولم يكن يعتمد في علاقاته على قدرته على الكلام الطويل في كثير من المواضع بل كان يقدم خدمات .. كان لا يتأخر في مساعدة طالب في مذاكرة اللغة الإنجليزية أيام الامتحانات حتى لو كان من طلبة الجامعة .. وكان يشترك في كتابة المنشورات إذا طلب منه ويستطيع أن يسجل فيها حماسا يؤكد أنه في قمة الوطنية .. وكان يتبرع من جيبه تبرعات صغيرة لتحقيق أى خطة وطنية .. كان يبحث بنفسه عن تقديم الخدمات .. ولكنه لا يقدم خدمة إلا لمن يحتاج إليه .. والذين لا يحتاج إليهم لا يعرفهم ..

وكل ذلك جعل منه خزينته لا تفرغ من المعلومات .. وفي كل يوم يجلس إلى الآلة الكاتبة ذات الحروف الإنجليزية ويكتب رسالة طويلة يضمها كل ما جمعه من معلومات ويضيف إليها رأيه ثم يرسلها إلى مستر مالوكولم في السفارة البريطانية عن طريق مستر

جولدلمان المدرس في المعهد .. وأحيانا يذهب إلى مالوكولم بنفسه في بيته بالمعادي إذا كانت هناك مواضيع تتطلب مزيدا من الشرح .. وإعجاب مالوكولم وثقته به تزداد يوما بعد يوم حتى أنه فوجيء وهو يتسلم الظرف المغلق من جولدلمان في البار المحاور للمعهد بأنه يضم خمسين جنبا لا ثلاثين كما كانت ودون أن يطلب مزيدا ..

ولكنه بدأ يحاسب نفسه على انتسابه للمعهد كل هذه السنوات الطويلة .. إنه يخشى أن يعتبره شبان الحركة الوطنية مجرد موظف بريطاني وتبدأ الشكوك تثور حوله .. ثم إنه يجب أن تكون له صفة خاصة .. مهنة يعرف بها .. لن يكفيه ولن يستره الاستمرار في ادعاء أن أباه غني ويعيش معتمدا عليه مكتفيا بأرباح زراعة البطيخ .. إنه لن يستكمل شخصيته إلا إذا كان له عمل يعرف به .. وقد فكر في أن يعمل مدرسا للغة الإنجليزية في إحدى المدارس الخاصة .. وفكر في أن يعمل في الصحافة .. إن أغلب المعلومات التي يحصل عليها ويخلص بها مستر مالوكولم تصلح للنشر كأخبار في الصحف .. ولكن لماذا يقتصر تفكيره على هذه المهام المتواضعة المحدودة القيمة والمحدودة الدخل .. لماذا لا يستغل ذكائه في البحث عن الطريق الذي يصل به إلى القمة .. قمة القوة والمهابة الشخصية وقمة الثراء .. لماذا لا يطمح في أن يكون شخصية من الشخصيات المعروفة المجلة بين الشخصيات المصرية .. انه واثق في ذكائه ..

وذهب للقاء مستر مالوكولم في بيته بالمعادي وقال له وهو
حريص ألا يبدو في كلامه كأنه محتاج أو كأنه يشحذ :

— لقد أصبحت أحس أن انتسابي للمعهد البريطاني قد يضعف
من شخصيتي ويؤثر في نشاطي .. يجب أن يكون لي عمل واضح
أستكمل به شخصيتي أمام أصدقائي .. وقد قررت أن أبحث عن عمل
جديد ..

وقال مالوكولم من خلال ابتسامة خفيفة كأنه يستطيع أن يرى
كل ما في رأس رفعت :

— أي عمل ؟

وقال رفعت مدعياً الإصرار :

— عمل حر ..

وعاد مالوكولم يسأله من خلال ابتسامته الخفيفة :

— أي نوع من الأعمال الحرة ؟

وقال رفعت وهو يدعي اللامبالاة :

— لم أقرر بعد .. أنا ما زلت أدرس ما أعمى ..

وقال مالوكولم وهو يربت على كتفه :

— سأراك بعد يومين وأكون قد فكرت لك وقد أستطيع أن

أساعدك ..

وقال رفعت مبتسماً :

— لا أريد أن أتعبك ..

وقال مالوكولم :

— إنني أحب أن أتعب لك وإن كنت لن أتعب ..

وقبل أن ينصرف رفعت أمسك مالوكولم به وقال في حماس
كأنه خطرت له فكرة :

— اسمع .. تعال إلى هنا في البيت يوم السبت .. في الساعة

السابعة مساء .. ونعال برباط عنق أسود .. خطرت على بالي فكرة
ستعرفها يومها ..

وخرج رفعت حائراً .. ماذا أعد له مالوكولم يوم السبت ..

لعله سيجمعه ببعض الشخصيات الإنجليزية التي يمكن أن تعرض
عليه عملاً جديداً .. ورباط العنق الأسود الذي طلبه منه يعني أن

يرتدي بدلة سموكن .. لاشك أنه دعاه إلى حفلة عشاء فخمة

رسمية .. ولكنه لا يملك بدلة سموكن .. يجب أن يشتري واحدة ..

هل معه ما يكفي لشراء مثل هذه البدلة .. وقضى أيامه وهو يسعى

لشراء بدلة سموكن ويقارن بين الثمن وما في جيبه .. إلى أن اشتري

بدلة مستعملة « سكند هاند » و .. ولكنه كان حريصاً على أن

تبرزه في صورة لائقه محترمة .. واضطر أن يشتري قميصاً منشي

وأزراراً لامعة .. والكرافت الأسود .. بل اضطر أن يشتري حذاء

أسود لامعاً .. كل ما يتطلبه سموكنج .. أضاع كل ما أخرجه ..

لاهم .. إنه لا يسرف ولكنه يجازف .. وقد قرر منذ البداية ألا

يتردد أمام المحازفات التي تخطر بباله .. ولكن من سيقابل في هذا الحفل .. ربما بشخصيات معروفة بعدائها للحركة الوطنية ويفضحه لقاءه بها .. ولكن مالوكولم حدد له موعدا مبكرا قبل الحفل .. في الساعة السابعة وسيعرف منه قائمة المدعوين وإما أن يختار البقاء أو ينصرف ..

وجاء يوم السبت .. وذهب إليه في الموعد وهو يحمل قائمة بالمعلومات الدسمة كأنه يرشوه بها .. وقال له مالوكولم بسرعة :
— سأصحبك إلى العشاء في بيت منصور باشا فكري .. لقد اتفقت معه على دعوتك ..

واهتز كل كيان رفعت .. إنه لا يعرف منصور فكري شخصيا ولكنه معروف بأنه رجل الإنجليز الأول في مصر .. وعن طريق الإنجليز استطاع أن يكون أقوى رجل في مصر .. وأثرى أثرياء مصر .. إنه يملك عشرات الشركات الصناعية والتجارية .. وأصبح عن طريق الإنجليز يتحكم في كل الحكومات المصرية .. وأصبح باشا .. كيف يذهب إلى بيت منصور فكري في حين أنه حريص على أن يعرف بين الناس بشخصية الوطني الثائر ..

ولاحظ مالوكولم اهتازه وقال ضاحكا :

— لن تلتقي هناك بمن يشي بك إلى أصدقائك .. ثم إنه أفضل من يستطيع أن يجد لك عملا حرا من الأعمال التي تبحث عنها ..

وأفكار لا تزال تعصف بعقله .. لماذا لا يذهب ويتعرف بمنصور باشا فكري .. لماذا لا يجازف .. إنها أمنية لم يكن يحلم بتحقيقها .. ثم إن كل الزعماء ورؤساء الأحزاب يتشرفون بلقاء منصور فكري .. بل إن كلا منهم يتحكم في فترة يجعل فيها من منصور فكري شخصية وطنية يقدمها للشعب كأنها شخصية زاهية نظيفة في وطنيتها .. بل قبل إن منصور فكري بدأ يفكر في إقامة حزب سياسي خاص به .. لاشك أنه سيكون حزب الإنجليز .. المهم أنه يجب ألا يخاف .. ولا يتردد .. يجب أن يجازف إلى أبعد ويتشرف بلقاء منصور فكري ويحاول أن يستغله .. وهو يستطيع دائما أن يجد ما يبرر به هذا اللقاء أمام الجمعيات الثورية الوطنية .. إنه ليس أقل من باقي الزعماء والقادة الذين يذهبون إلى منصور فكري ولكنه يتميز عنهم بأنه لا يريد أن يصل إلى الحكم ولكنه يريد أن يكشف أسرار الإنجليز حتى يحاربهم بأمرارهم .. هكذا سيقول إذا سأله أحد من هؤلاء الثوار ..

وقال رفعت لمالوكولم وهو يحاول أن يطرد حيرته عن مظهره :
— يكفي أن أتعرف به .. إنه فعلا شخصية هامة ..

وذهب مع مالوكولم في سيارته إلى قصر منصور فكري في مصر الجديدة وهو يراعى في جلسته بجانبه ثم في كل خطوة يخطوها أنه مرتد بدلة سمو كن .. كان يحس كأنها كالبذلة العسكرية تفرض على لابسها قيودا مرسومة لكل حركة ..

وذهل عندما دخل القصر .. إنه حفل كبير .. والقاعات كلها مزدحمة بالعشرات رجالا ونساء .. ليس كل الرجال من الإنجليز إن بينهم شخصيات مصرية معروفة .. وهى شخصيات تمثل كل الأحزاب والاتجاهات السياسية .. وليس بينهم من يعرفونه معرفة شخصية .. لم يكن بينهم واحد من هذه الشخصيات التى تتولى قيادة الشباب من داخل الأحزاب .. الحمد لله أن لا أحد يعرفه .. والنساء أيضاً بينهم أيضاً مصرىات كثيرات .. وبينهن هذه الشخصيات النسائية المعروفة فى إحياء الحفلات رغم أنهم لسن فنانات .. إنهن زوجات من كبار العائلات .. ولكن يكنى جمالهن ورشاقتهن وخفة دمهن .. إنهن كالأعلام التى ترفرف على المجتمع ..

وقدومه مالوكولم إلى منصور باشا الذى قال له فى تعال :

— سمعت عنك سمعا يسرك وسأراك غدا فى مكتبى ..

وكانت هذه هى الكلمة الوحيدة التى سمعها من منصور فكرى ليلتها وانشغل منصور عنه ببقية المدعوين ، وكان يبدو كأنه يتجاهله كلما سقطت عيناه عليه صدفة .. ووقف رفعت فى جانب ملتصق بمالوكولم وهو يتطلع إلى المدعوين كأنه يجد نفسه فى عالم جديد .. غريب .. إن كل من يراهم سبق أن سمع عنهم أو رأى صورهم فى الصحف .. وهو لا يستطيع أن يجد طريقه بينهم .. لا يعرف كيف يقدم نفسه إليهم أو كيف يبدأ حديثا معهم .. وأشد ما جذب عينيه هو النساء .. لم يكن يحلم بأن يقف معهن على أرض واحدة .. كل

هذا الجمال .. وكل هذه الخواتم .. إن كلا منهن تحمل من الخواتم ما يعجز عن شرائه كل بطيخ كفو البطيخ .. هل يأتى اليوم الذى يصبح فيه رجلا كهؤلاء الرجال وله نساء مثل هاتيك النساء ..

وأقبلت شابة صغيرة تصافح مالوكولم .. إنها ليست جميلة .. ولا ترتدى ثوبا من هذه الثياب المذهلة .. وليس عليها أى قطعة من الخواتم .. ولكنها إنجليزية .. وقدمتها إليه مالوكولم قائلا بسرعة : — رفعت .. مجدولين .. إنها جديدة على مصر .. سأتركك لتحدثها عن مصر حديث الشباب ..

وابتعد عنه مالوكولم بسرعة كأنه كان يريد أن يتخلص من عبئه ..

ووقف هو مبتسما أمام مجدولين وقد وجه كل ذكائه إليها .. ماذا يقول لها .. ماذا يفعل بها .. إنه هو شخصيا ليس له أى تجربة مع النساء أو البنات .. لقد عاش متفرغا حتى اليوم لاختيار طريقه وبناء نفسه .. بل إنه يعتبر حتى شابا بكرا رغم أنه تعدى الثالثة والعشرين من عمره .. هل يبدأ حياته بهذه الفتاة .. إنها ليست جميلة .. ولكنه هو نفسه لا يعتبر نفسه وسيا ولم يطرأ فى حياته ما يشد إحدى البنات إلى وسامته .. إن كفو البطيخ كانت بخيلة فى تشكيكه علاوة على قصر قامته .. ولكن مجدولين ليست مجرد فتاة إنجليزية لقد عرف حديثه معها أنها ابنة وكيل بنك باركليز الجديد الذى

عين أخيرا .. بل إنها أخذته وسارت به بين المدعوين وقدمته إلى أبيها .. إنه لاشك سيكون في حاجة إلى معاشرة البنوك إذا أراد أن يحقق أحلامه .. بل ربما كان من مصلحته أن يسعى للزواج بمثل هذه الفتاة .. فتاة إنجليزية .. إن منصور باشا فكرى متزوج من إنجليزية .. لعله لم يكن يستطيع أن يصل إلى كل هذا الخلد لو لم يكن متزوجا من إنجليزية .. إن الزوجة الإنجليزية هي الطريق السهل إلى السفارة البريطانية .. خصوصا إذا كانت ابنة رجل يحسب حسابه .. ابنة وكيل بنك باركليز ..

كل ذلك كان يدور في خاطره وهو يستغل كل ذكائه وكل موهبته في إطالة الحديث لاكتساب مشاعرها واهتمامها وشغلها بنفسه حتى لا تبعد عنه ، وقال لها عند نهاية السهرة :

— هل سأراك غدا لنذهب إلى سفارة ..

وقالت في مزح :

— لماذا غدا ..

وقال ضاحكا :

— لأن الجو في مصر حار لا يحتمل الانتظار بعكس الجو البارد في لندن ..

وضحكت وانفتحت على لقائه في الغد، ولكن بعد أن تعدد أن يكون اللقاء في الساعة الرابعة بعد الظهر لأنه في الصباح يضع كل همه في لقاء منصور باشا بمكتبه كما وعده ..

ذهب رفعت البيومي إلى مكتب منصور باشا فكري وهو يجمع كل أعصابه حتى يثق في نفسه ويقنع نفسه بأنه إنسان شاطر ذكي .. إن منصور باشا لم يكن ليتقبله لولا توصية مالمو كولم .. ومعنى هذا أن صداقته مالمو كولم يستطيع أن يفرض بها إرادته ويصل بها إلى ما يشاء .. لأنه قوى مالمو كولم وليس في حاجة إلى الاعتماد على قوة منصور باشا .. وتعهد وهو في الطريق أن يشتري « باب » ووقف فترة مع البائع حتى يتعلم منه كيف يحشوها بالدخان وكيف يشد أنفاسها منها .. إن كل من عرفهم من الإنجليز يدخنون الباب ، وفي حفل العشاء الفخم كان كثيرون من المدعوين حتى من المصريين يحملون الباب بين أصابعهم .. وهو يريد أن يكون له مظهر الطابع الإنجليزي ومظهر الطبقة الأرستقراطية التي تعيش مع الإنجليز حتى يؤثر على منصور باشا ويقنعه بأنه ليس مبتدئا دخيلا على هذه الطبقة .. وإن كان لم يسترح بعد ما شد أول أنفاسه من الباب وانتابته نوبة من الكحة اكتفى بعدها بأن يحمل الباب بين أصابعه دون أن يقربها من فمه ..

ولم يستقبل الاستقبال الذي كان ينتظره اعتمادا على نفوذ مالمو كولم .. لقد لطمه منصور باشا في مكتب السكرتارية أكثر من نصف ساعة وهو جالس يتسلى باللعب بالباب بين أصابعه ويحاول أن يبدأ أحاديث مع السكرتير حتى يكسب صداقته .. إن الصداقة الجديدة هي التي تشمل كل الطبقات من السكرتير إلى الرئيس ..

وسمح له أخيراً بالدخول إلى منصور باشا واستقبله جالسا إلى مكتبه وبين شفتيه ابتسامة باردة صغيرة كأنها كليشيه رسمي لاستقبال الزوار .. وقال له فوراً دون أن يدعوهُ إلى الجلوس :

— مستر مالوكولم يثق فيك جداً وتكلم عنك كأنك أعجوبة ..
وقال رفعت وهو يتلفت حوله باحثاً عن المقعد الذي يجلس عليه ثم جلس دون دعوة ودون استئذان :

— إنه صديقي قديم ..

ونظر إليه منصور باشا وهو يراه يجلس بلا استئذان ولم يعترض ولكن كان في نظره امتعاض وقال :

— قال لي أنك تريد أن تعمل .. ماذا تعمل ؟

وقال رفعت وهو يتعمد الهدوء ويتعمد الجلوس في أدب :

— الواقع أنني في حاجة إلى دراسة كل مجالات العمل قبل أن أحدد ماذا أعمل .. ولاشك أن سعادتك خير من يوفر لي هذه الدراسة ..

وقال منصور باشا بلهجة سريعة كعادته عندما يتكلم :

— سأوصي مدير المكتب بأن يسجل لك مجال جمع المعلومات ..
اقصد مجال الدراسة .. وسيكون لك مرتب .. مائة جنيه في الشهر ..

وقال رفعت في لهجة هادئة وهو يكم هزة فرحته :

— شكراً ..

— هل تعرف برعنى بك ..

وقال رفعت في حيرة :

— برعنى بك من ؟

وقال منصور باشا :

— برعنى محمود .. ألا تعرفه .. غريبة ..

وقال رفعت كأنه يتذكر :

— أسمع عنه .. وأقرأ عنه .. ولكني لا أعرفه شخصياً ..
ولا أعرف عنه إلا أنه من كبار رجال الأعمال ..

ولوى منصور باشا شفتيه امتعاضاً :

— حاول أن تعرف عنه كل شيء حتى لون وسادة الفراش الذي ينام عليه .. وبلغني أنا شخصياً بكل المعلومات التي تحصل عليها .. سيكون لك حتى لقاء في أي وقت ..

وقال رفعت في ضيق :

— سأحاول ..

وأشار منصور باشا إلى الباب بأصبعه كأنه يطرده قائلاً :

— تستطيع الآن أن تذهب للقاء مدير مكنتي .. إن لديه كل المعلومات التي تخصك ..

وخرج رفعت وهو يحاول أن يفسر كل كلمة سمعها من منصور باشا .. إنه يريد أن يعمل لحسابه الخاص .. أي أن يسلمه

هو شخصيا كل المعلومات التي يحصل عليها .. ويكون له حق توجيهه إلى نوع المعلومات التي يريدونها .. لا .. لن يتنازل عن اتصالاته وصداقته لمالكوكوم .. لن يكون في خدمة منصور باشا بل في خدمة مالكوكوم حتى يحتفظ بقوته .. قوة مباشرة .. ولكنه لا يريد أن يرضى منصور باشا .. إنه هو الآخر قوة لا يستهان بها .. ثم إنه سيدفع له أتعابه .. مائة جنيه في الشهر .. لاشك أنه اتفق مع مالكوكوم على هذه الأتعاب لتكون بديلا عن الخمسين جنيها التي ترسلها له السفارة على يد مستر جولدمان .. إن مالكوكوم يريد أن يبعده عن كل الشبهات .. لم يعد يتقاضى أتعابه من السفارة بل من شركة الإنشاءات التي يملكها منصور باشا كأى موظف عادى ..

ولكن لماذا يهتم منصور باشا كل هذا الاهتمام بأخبار برعى بك محمود كأنه يبحث عن أسرار عدوه ليحاربها بها .. إنه لا يدري بعد ..

ودخل إلى مدير المكتب وقد استقبله بترحاب كبير وأحسن بعد لحظات أنه يعرف عنه كل شيء .. يعرف حقيقة عمله .. ويعرف القوة التي استند عليها ودفعته إلى العمل في هذه الشركة .. وقد كان شخصية سهلة قدر رفعت أنه يستطيع أن يكسبها بسهولة .. وجلس معه جلسة طويلة بذر خلالها يذور صداقته وقام منصور فا بعد أن اتفق معه على وضعه الذى سيكون عليه في الشركة ..

ووجد نفسه بعد أن خرج يشجع إلى حى الدراسة .. بداية طريقه منذ جاء من كفر البطيخ إلى القاهرة .. ومهبط وحيه .. إن كثيرين من أصدقائه الشبان الوطنيين لا يزالون يقيمون في حى الدراسة .. وبحس إحساسا غريبا كأنه يريد أن يعتذر لهم عن علاقته الجديدة بمنصور فكرى .. يريد أن ينقى تهمته لم توجه إليه بعد .. وجلس في مقهى عزوز الذى تعود أن يجتمع فيه بأصدقائه ويسرق منهم معلوماتهم عن الحركة الوطنية .. وأرسل في طلب رطل كباب من الكبابى الحاور .. لقد كان الكباب أيامها يقدم في المطاعم بالرطل لا بالكيلو كما يقدم هذه الأيام .. ولم يلبث طويلا حتى بدأ أصدقائه يتجمعون حوله .. وقال دون أن يسأله أحد وكأنه يريد أن يتخلص من عقدة الدفاع عن نفسه .. العقدة التي تهرى أعصابه :

— لقد وجدت أخيرا وظيفة .. في شركة الإنشاءات ..

وقال أحد الأصدقاء فوراً :

— إنها شركة يملكها منصور فكرى .. احترس ..

وقال رفعت ضاحكا :

— لا أدري من يملكها .. كل ما أدريه أرى في حاجة إلى

وظيفة وقد وجدتني في هذه الشركة .. والعمل شيء والسياسة

شيء آخر ..

وقال صديق آخر :

— يقال أنه سيؤسس حزبا سياسيا جديدا وقد يفكر في أن

يضم إليه كل موظفى شركاته ..

وقال رفعت كأنه بهتف :

— مستحيل .. إنهم لم يشترطوا على الانضمام لحزب وإلا لما
قبلت الوظيفة .. وأنتم تعرفونني .. إنى أضيع حريتي فوق كل
الأحزاب .. ولعل هذا كلام .. وقد قرأت في الصحف أن
منصور فكرى كان في زيارة النحاس باشا فهل كان يعرض عليه
الانضمام لحزبه الجديد .. كلام ..

وطال النقاش إلى أن قام رفعت منصرفا وهو مطمئن إلى أنه
احتفظ بثقة أصدقائه ولن يتعرض لأى اتهام ..

.. .

كانت الساعة قد قاربت الرابعة .. موعده مع مجدولين ..
وكان الاتفاق أن يمر بها في بيتها بالزمالك .. بيت وكيل بنك
باركليز .. ويأخذها من هناك إلى سقارة .. وقد أخرج من جيبه
الباب الذى كان قد اشتراه في الصباح وأخذ يحرب وهو في
طريقة إشعاله وشد أنفاسه ثم يعجز فيكتفى باحتضانه بأصابعه
متباهيا بالمظهر الإنجليزي .. لقد كان حريصا أن يخفى هذا الباب
عن أصدقائه الذين التى بهم .. لا يريد أن يتصوروا أنه ارتقى إلى
مرتبة الإنجليزي .. ولن يروا الباب في يده .. ولن يروا البدلة
الاسموتنج طبعاً ..

وفتحت له مجدولين الباب وبين شفتيها ابتسامة واسعة ووجهها
يقبض مرحا .. لقد كانت فعلا في انتظاره .. ووضعت ذراعها في
ذراعه وشدته خارجة إلى الشارع ..

وقال وهو يحس بلحم ذراعها ملتصقا بذراعه :

— ليس عندى سيارة ..

وقالت ضاحكة :

— ولا أنا ..

قال وهو يضغط بذراعه على ذراعها :

— سنركب سيارة أجرة ..

قالت في مرج :

— كما تريد ..

قال من خلال ابتسامته تملأ وجهه الفلاحى :

— المسافة بعيدة والوقت قصير .. مارأيك لو ذهبنا إلى الهرم

بدلاً من سقارة .. إنى واثق أن هناك الكثير لم تربيه من الأهرام ..

قالت ضاحكة :

— موافقه ..

وخطا بها خطوات وهو سعيد بذراعها تحت ذراعه ..

لم تعطه امرأة من قبل ولا حتى ذراعها .. ثم قال وابتسامته تنضج

بدكائه :

— هل تريد أن تحبى وتفرجى على مصر كلها .. تعالى
نذهب فى الترام .. إن الترام فى مصر يصلح منتدى للأصدقاء ..
وصاحبت فرحه :

— فكرة رائعة .. إنى منذ وصلت مصر وأنا أتمنى أن أركب
الترام .. ليس عندنا فى لندن ترام مثله ..

واستراح لفرحتها .. إنه كان يسعى للتوفير .. إن أجر السيارة
حتى الهرم لن يقل عن ثلاثين قرشا ولكن الترام أن يكلفه أكثر
من قرشين وأربعة مليات ..

وركب الترام .. درجة أولى .. وهى طول الوقت ملتصقة به
دون أن تحس بعتاب نظرات بقية الركاب ولا بسخطهم .. وهو
لا يكف عن الكلام .. يحدثها عن تاريخ الفراعنة .. وعن تاريخه
هو شخصا .. ويدمج حديثه كلمات الإعجاب بها والاجتذاب
إليها .. ثم طاف بها الأهرام ودخلها فيها وفى كل مناسبة يزداد
التصاقا بها وهى مقبلة على مزيد من الالتصاق .. إلى أن ركب
جولا .. جمل واحد .. هى فى مقدمة السنام وهو جالس وراءها
ملتصقا كله بها .. وأحس بالجميل وهو يتحرك يجعله يتحرك فوق
ظهرها .. إن كل ما فيه يتحرك .. إحساس لم يكن يحس به إلا
عندما يحتمل فى نومه .. واشتدت به أعصابه الهائجة حتى كفيه واحتضن
بها صدرها .. وهى مستسلمة .. تتركز بظهرها عليه أكثر حتى
تمكن منها أكثر .. ولكن هبت عليه زوبعة من الخوف .. أنه

يخاف أن يتهور وتدفعه فحولته رغما عنه إلى أن يأخذها أمام
الناس .. فأمر صاحب الجمل بأن يهبط بها على الأرض .. وقفز
من فوق الجمل بسرعة كأنه يهرب ويربح نفسه مما هو فيه ..

وعاد بها فى سيارة أجرة .. لم يعد يحتمل حالته ولم تغلبه نزعة
التوفير .. وقد جلس بجانبها فى السيارة كأنه خجل منها لا يستطيع
أن يرفع عينيه إليها .. كان يعتقد أنه فقد أعصابه معها فوق الجمل
مما لا يشرف مصريا أمام فتاة إنجليزية .. قد تقول عنه أنه حيوان
تتمكن منه مطالب الحيوان .. وهى بالعكس .. تنظر إليه متعجبة
من ارتباكها ومن اختصاره فى حديثه الطويل الذى عودها عليه ..
لقد كانت هى التى تتحدث .. وتتحدث طويلا وتحتضن يده بيدها
وتلتصق كتفها بكتفه : لعلها تعيد إليه إحساسه .. إحساسه بها كما
كانا فوق الجمل .. وكلاهما لم يفصح عما أحس به فوق الجمل ..

وقالت له وهو يودعها أمام البيت :

— تعال .. كوب من الشاي ..

قال وهو يلتهمها بعينه بعد أن هدأت كل أعصابه :

— آسف .. مرتبط بعمل ..

قالت وهى ملتصقة به :

— سأراك غدا ..

قال سعيدا :

— أين ؟

قالت وهي تحتضنه بعينها :

.. هنا .. في البيت .. نشرب الشاي معا .. في الساعة الرابعة ..

إني أعرف أنك مشغول دائماً في الصباح ..

وظلت وعيناها معالقتان بعينه كأنها تنتظر منه شيئاً .. وهو مكثف بيدها في يده وابتسامته بين شفتيه .. وكأنها يئست من أن يتحرك فأنحنت فجأة وقبلته قبله سريعاً على وجنته ثم اختفت داخل البيت .. انحنت لأنها أطول منه قامته ..

...

وكان رفعت مرتبطاً فعلاً بعمل ..

كان يريد أن يبحث وراء برعى بك محمود كما طلب منه منصور باشا فكري .. وظاف بالأصدقاء والمعارف الذين يعتقد أنهم يعرفون برعى محمود .. طوال الليل وطوال صباح اليوم التالي وهو يبحث .. ووصل إلى معلومات لم تكن تخطر على باله ولا تثير اهتمامه ..

إن برعى محمود هو رجل أمريكا الأول في مصر ..

ولكن ..

إن منصور فكري هو رجل بريطانيا الأول في مصر ..

غريبة ..

إن بريطانيا تقيم حلقة واسعة من التجسس على أمريكا في

مصر ..

لم يكن هذا يخطر على باله ..

(٣)

كان رفعت اليومى فد فوجيء بأن لأمريكا رجلاً في مصر تعتمد عليه السفارة الأمريكية ومن خلفها واشنطن .. وهو برعى بك محمود .. وقد لام نفسه لأنه فوجيء .. لم يتسع ذكاؤه ليكتشف أن أمريكا بعد الحرب أصبحت في مصر .. ولم يقدر أنها أصبحت الأقوى بعد أن كان لها الفضل في تحقيق الانتصار على النازي في الحرب العالمية .. وهو فضل مفروض أن يحملها مسئولية العالم كله .. كان ذكاؤه محصوراً في الواقع القديم الذي يفترض أن بريطانيا هي القوة الوحيدة في مصر .. الدولة التي لا تزال تحتل مصر بقواتها ..

وربما كان أحد أسباب المفاجأة أن أمريكا في أيامها كانت تتحرك داخل مصر في هدوء وخفية حتى لا يحس أحد في مصر بها .. كان المصريون لا يحسون بأمريكا إلا من خلال أفلام الحرب

ورعاة البقر التي تعرض عليهم .. وكان أشهر مشروع شعبي أقامته أمريكا في مصر هو بناء سبها مترو .. في حين أن بريطانيا كانت تعيش بين المصريين بتاريخ الاحتلال المرير .. وكل مصري يفتح عينيه كل صباح مطالباً بالجلاء .. وكانت مصر تعيش قضية وطنية مع بريطانيا ، ولذلك لم تحس إلا ببريطانيا .. وبريطانيا لم تكن تنكر وجودها في مصر ، وكانت تجاهر بحق سيطرتها على مصر ، وحتى بحق تدخلها في اختيار الوزارات والوزراء وفي كل كبيرة وصغيرة من شئون مصر ..

ولذلك كان رفعت البيومي معذورا في جهله بالنشاط الأمريكي في مصر .. ثم إن برعي بك محمود نفسه لم يكن يجاهر بأنه رجل أمريكا الأول في مصر ولا حتى كان يجاهر بأصدقائه الأمريكيين .. كان كل ما هو معروف عنه في مصر أنه رجل أعمال شاطر .. في حين أن منصور باشا فكري كان يجاهر متفاخرا متباهيا بأنه رجل الإنجليز الأول في مصر .. وإن كل بريطانيا وكل السياسة البريطانية الخاصة بمصر بين يديه .. لن يستطيع حزب أن يتولى الحكم إلا بالاتفاق معه ، ولن يستطيع أحد أن يكسب رضا بريطانيا أو يقوم بأي عملية معها إلا عن طريقه .. هذا الفارق جعل من برعي محمود شخصية مجهولة سياسيا ، وجعل من منصور فكري عدوا من أعداء الحركة الوطنية ومن أعداء الشعب ..

وإن كان رفعت قد اكتشف بعد أن بدأ اهتمامه برعي محمود أنه أصدر كتابا أو تقريرا عن مجالات التعاون الجديد بين مصر وأمريكا .. كتاب يشيد فيه بنيات أمريكا ويؤكد أنها الدولة التي تقوم على مساعدة الدول الصغيرة في بناء نفسها دون أن يكون لها مطمع في الاستيلاء أو السيطرة عليها ، ثم تضمن الكتاب بحثا علميا عن مجالات التعاون التجاري والاقتصادي مع أمريكا .. وكان هذا الكتاب يكتي لإثارة الشكوك والانهامات حول برعي محمود . ولكنه تعمد ألا يوزع هذا الكتاب شعبيا إنما أكتفى بأن يصل إلى الشخصيات المصرية التي يعتقد أنها قابلة للتعاون معه ، وذلك حتى لا يعرف شعبيا أنه أمريكي ..

وأيامها عندما اكتشف رفعت بذكائه أن أمريكا في مصر بدأ يسائل نفسه .. لماذا لا ينقل نشاطه من بريطانيا إلى أمريكا .. لماذا لا يسعى إلى السفارة الأمريكية حتى يكسب صداقتها واعتمادها عليه بدلا من السفارة البريطانية .. ربما كان التعامل مع أمريكا أسهل ويدير مكاسب أسخى لأنها لا تزال في مرحلة تكوينها .. مرحلة فرض وجودها في مصر .. ولكنه طرد هذا الخاطر عن ذكائه بسرعة .. ما في اليد خير مما على الشجرة ..

وقد فوجيء بعد أيام من عمله في مكتب منصور باشا فكري بشركة الإنشاءات ، فوجيء به يستدعيه إلى مكتبه ويأخذه قائلا وهو

جالس على مقعده ودون أى كلمة تحية كعادته التى اكتسبها من
الرؤساء الإنجليز :

— هل جمعت معلومات عن برعى محمود ..

دهش من استدعائه لإلقاء هذا السؤال .. لقد كان المفروض
أن ينتظر الباشا حتى يجمع هو المعلومات ويتقدم بها إليه دون حاجة
إلى استدعائه .. هكذا أصول وتقاليد هذا النوع من العمل .. وقد
دهش رفعت أكثر من لهجة الحقد التى ألقى بها الباشا سؤاله .. إنه
يكره برعى محمود إلى حد لا يستطيع الانتظار كما تقضى التقاليد ..
إنه فى حرب معه لا تحتمل الانتظار ..

وقال رفعت وهو واقف فى مكانه دون أن يحاول فرض
شخصيته بالجلوس على مقعد :

— عرفت عنه أنه أمريكانى .. بل رجل أمريكانى الأول فى مصر
ولا شك أنك تعرف عنه هذا لذلك لم أجد داعيا لإبلاغك عنه ..

وقال الباشا فى لهجة جافة :

— وماذا عرفت أيضا ؟

وقال رفعت بعد أن زفر نفسه الضيق :

— اسمع يا باشا .. ليس من مهمتى أن أنقل إليك معلومات
عادية عن برعى محمود .. من قابل وأين ذهب وماذا تم .. ليست
هذه هى مهمتى .. إنها مهمة أى شخص عادى .. ولكنى أنقل
إليك ما يمكن أن يصل إلى من عمليات هامة كبيرة خطيرة يقوم بها
برعى .. ولم يصل إلى شىء هام حتى الآن .. وثق أنى مهم ..
اطمئن .. إنى أعلم أنك تجربنى أو أنك تضعنى فى حالة اختبار
وستفرح بى .. فقط أرجوك الانتظار على ..

وزم منصور باشا فكرى بشفتيه ثم عاد والتفت بعينه إلى
الأوراق التى أمامه كأنه يأمر رفعت بالانصراف ..
وانصرف رفعت فعلا وبين شفتيه ابتسامة ساخرة ..

...

وكان رفعت اليومى قد بدأ فعلا يركز كل اهتمامه بتتبع أخبار
برعى بك محمود ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الشبان الذين
يستطيعون أن يحدثوه عنه .. وإن كان الحديث دائما فارغا لأن
برعى يعتمد ألا يكون له شخصية عامة وألا يعيش وسط مجالات
الحركة الوطنية التى يعيش فيها رفعت .. بل إن رفعت كان برفافة
لسانه يعتمد عندما يقابل الشخصيات الكبيرة أن يشير الحديث عن
برعى محمود ولكنه أيضا لم يكن يصل إلى شىء سوى المعلومات
العامة التى يمكن أن يعرفها غيره .. لم يصل إلى سر .. وقد استطاع

أخيرا أن يصل إلى صداقة شاب في الخامسة والعشرين من عمره
يعمل في مكتب برعى محمود .. اسمه ممدوح طوسون .. وقد اهتم
كثيرا بتوطيد صداقته بممدوح .. إنه أقرب من يعرفه إلى برعى ..
وأقربهم إلى أوراق برعى .. وبني على صداقته به أحلاما واسعة ..

وكان رفعت في نفس الوقت يعيش قصته مع الفتاة الإنجليزية
مجدولين .. ابنة وكيل بنك باركليز والقصة تتسع .. وتتسع .. إلى
أن وصلت إلى نهايتها ..

وقد دخل بينها لأول مرة عندما دعته إلى تناول الشاي بعد أن
كان قد دعاها في اليوم السابق إلى نزهة الحرم وقضيا الساعات وهما
متلامسان إلى أن عاش جسداهما في احتكاك متصل وهما على ظهر
حبل واحد يطوف بهما .. لقد احتار ساعتها كيف يطفىء النار التي
اندلعت في كل أعضائه وأثارت كل نفرة من جسده .. كيف
يأخذها لتكون أول امرأة يأخذها في حياته بعد الحرمان الطويل الذي
عاشه العمر كله .. لم يكن حرمانا ولكنه كان مشغولا عن نفسه
وعن إشباع طبيعته حتى أصبحت هذه هي عادته .. حتى أنه خجل
من نفسه وهو معها على ظهر الجمل وخشى أن تعتبره مجرد رجل
متوحش .. فهرب من فوق الجمل ..

وقد دهش وهو في بينها بأن وجد أنها وحدها .. لا أبوها
ولا أمها ولا أحد آخر .. ودخل كبير الخدم « البتلر » وهو في زي

الرسمي كأنه رئيس الوزراء يتقدم لخدمة صاحب الجلالة .. ووضع
أمامها معدات الشاي وانصرف وتركها وحدها فوق الأريكة
العريضة .. وهو يتتبع بعينه البتلر وهو خارج .. إنه من يومها وهو
يتخفى أن يكون له بتلر خاص لخدمته إلى أن استطاع أن يحقق
أمنيته ..

وحاول أن يستغل موهبته في إطالة الحديث معها ولكن
ذكريات أمس .. ذكريات التلامس والاحتكاك لا تريد أن تفارقه ،
بل إنها بدأت تتفاعل على أعصابه وتحس أنه يريد أن يبدأ في إعادة
التلامس والاحتكاك .. وكانت هي التي بدأت كأنها ضاقت
بتردده .. وضعت يدها في يده .. فشدها إليه لتلامس كتفه كتفها ..
إنه لم يعد حائرا مترددا كالأمس .. فقد ذراعيه واحتضنها إلى
صدره .. ولامس خدها بخده .. ثم وصلت شفثاه إلى شفثها .. أول
قبلة له معها .. والقبلة تشدد كأنه بدأ فيها .. يأكل شفثها .. إنها أول
قبلة في حياته ولا يدري كيف يسيطر عليها وينظمها وفقا لأصول
القبل .. ولكنه يترك نفسه على طبيعته تملكه وتحكه .. وهي
مستسلمة .. وتبادله .. لا .. هناك حدود .. إنها عذراء وتصر على
أن تبقى عذراء .. إنه لم يكن يعرف أنه حتى بين الفتيات الإنجليزيات
عذراوات ..

وقد تباعدا بعد أن تفضا ثورة جسديهما دون أن يأخذ منها أكثر
مما أرادت أن تعطيه .. إنها لا تزال عذراء وهو الذي كان بكرا

وفض بكارته .. إنها المرة الأولى في حياته التي يجتمع فيها بامرأة
وينفث معها ما كانت تلج عليه به أعصابه ..

وكانا جالسين على الأرض ملتصقين بالأريكة عندما دخل
والدها وقد عاد من الخارج ونظر إليهما وبين شففيه ابتسامة واسعة
قائلا :

— هاللو ..

وقفز رفعت منظورا واقفا وهو يحاول أن يكتم رغبته .. ماذا
يقول الأب وهو يرى ابنته على الأرض وبجانبيها شاب .. الحمد
لله أنهما لم يخلعا ثيابهما .. ماذا كان يمكن أن يفعل به الأب وماذا
كان يمكن أن يقول .. ومجدولين ظلت جالسة على الأرض تستقبل
ابتسامة أبيها بابتسامة أوسع وقالت :

— إنه رفعت البيوى .. هل تعرفه ..

وتقدم الأب ومعه ابتسامته ومد يده يصافح رفعت وهو
يقول :

— إنك صديق لـ مالوكولم .. إنه يتحدث عنك باعجاب
شديد .. عن إذكك ..

وخرج الأب وتركهما وحدهما كما كانا .. وأتى رفعت
بنفسه على الأريكة وهو يلهث .. لعل ما جرى بينه وبين مجدولين

لايخرج عن التقاليد الإنجليزية ولايخرمها حتى أن الأب يوافق
عليها ..

وقد تركها ليلتها وهما على موعد في اليوم التالي .. إنها تريد ..
وقد تركها وهو حائر فيما يجري معها ويسأل نفسه عن مستقبل
مايجرى .. ولكنه خرج وقد طرأت على باله فكرة جديدة يجب أن
يحققها .. يجب أن يكون له بيت في مستوى بيت مجدولين .. بيت
يقم فيه وحده بعيدا عن إخوته وعائلته .. وهو يستطيع الآن أن
يكون له بيت في مستوى بيوت الطبقة الراقية الأرستقراطية .. إن
دخله وصل إلى مائة جنيه في الشهر .. وهو ما يكفي ليكون له مثل
هذا البيت ..

ومن ساعتها بدأ البحث عن شقة في حي من الأحياء الراقية ..
ووجدتها في جاردن سيني .. لقد بدأ حياته في كفر البطيخ .. ثم في
حي الدراسة .. ثم في حي الظاهر .. والآن وصل إلى جاردن
سيني .. إنها نعمة الذكاء .. وإيجار الشقة اثنا عشر جنيها في الشهر ..
كانت هذه أيامها أسعار الإيجارات الغالية .. وهو سيعيش فيها وحده
ويبقى عائلته في شقة حي الظاهر .. ولن يخل عليهم .. سيستمر في
إعالتهم .. عشرة جنيهات في الشهر أكثر ما يدفعه أبوه من إيرادات
كفر البطيخ .. وسيبقى له ما يكفيه من المائة جنيه ... ما يكفي
مظاهره التي يحتاج إليها ..

وقد تعدد قبل أن يوقع عقد الإيجار أن يصلح مجدولين إلى الشقة لتبدي رأيا فيها .. إنها ستكون شقتها .. بيتها .. هكذا قال لها ..

وقد كانت مجدولين قد ملأت حياته كلها .. حياته بعيدا عن عمله .. كانا يلتقيان كل يوم تقريبا .. وكانت تدعوه إلى البيت في كل مناسبة حتى أحس كأنه صديق لأبيها ولأمها ولو أن صداقتها صداقة إنجليزية باردة .. وكان يدعى في جميع الحفلات والسهرات التي يقيمونها، وكان حريصا على أن يسأل عن أسماء باقي المدعوين حتى يضع حدودا لإشاعة صداقته بالإنجليز .. وما بينه وبين مجدولين مستمر كلما وجدا نفسيهما وحدهما في بيتها حتى أصبح يتم دون افتعال كأنه شيء طبيعي .. كأنه يحدث بين زوج وزوجته وإن كانت لا تزال مصرة على أن تبقى عذراء .. وكان فيها في انطلاقة معها كأنه في حاجة إلى تعويض السنوات الطويلة التي قضتها في جوع .. أو بعيدا عن طبيعة رجولته ..

ولكن ..

هل يتزوجها ؟

إن مجدولين لا تثير موضوع الزواج ولا تعبر أبدا عن رغبتها في أن يتزوج .. ولكنها قطعاً لن ترفض الزواج إذا عرض عليها .. وهو لن يتزوجها لأنها جميلة .. إنه يعرف أنها ليست جميلة .. ولن

يتزوجها لأنه يحبها إنه لا يعرف الحب .. لا يعرف إلا ما يحقق به أهدافه وأحلامه .. ولكنه يفكر في أن يتزوجها لأنها إنجليزية .. إن معظم الذين وصلوا إلى التعم في مصر كانوا متزوجين من إنجليزيات .. منصور باشا فكري متزوج من إنجليزية .. إن الزواج من الإنجليزية يعتبر كأنه زواج من بريطانيا كلها فتفتح له كل أبواب بريطانيا .. ومجدولين رغم كل شيء قريبة مما يرضى التقاليد التي تعينه على اختيار زوجته .. إنها على الأقل لا تزال عذراء .. ثم إنها خلال كل تلك الأيام أصبحت معه في كل شيء .. في كل فكره وعاداته ومزاجه .. كأنها فعلاً أصبحت نصفه الآخر .. ولكن .. لا .. إن زواجه من الإنجليزية يؤكد انتماءه إلى بريطانيا .. يجعله يبدو أمام الناس، وخصوصاً أفراد الحركات الوطنية كأنه أصبح إنجليزياً .. لا .. يجب أن يبدو كأنه وطني متحفظ منزه لا يمكن أن يرضى لنفسه أن يتزوج إنجليزية ولو كانت ملكة بريطانيا نفسها .. يجب أن يبدو كأن مصريته مصرية طاغية عليه متمكنة منه بحيث لا يمكن أن يتزوج إلا مصرية ..

ورغم ذلك فهو لا يزال يفكر في الزواج من مجدولين ..

وهو يتذكر يوم أخذها معه لتبدي رأيا في الشقة الجديدة بحي جاردن سيتي .. لقد فرحت بها .. ثم بدأت تشاركه في تأثيثها .. بل ربما كانت هي التي أثثتها .. كانت تحمل له قطع الأثاث واللوحات التي تعلقها على الحائط والتحف التي تثرها هناك ..

ولم تكن تطالبه بشئ ما تأتى به .. وحتى لم تكن تعتبر ما تأتى به
كأنه هدايا .. إنها تحسن وتعلن أحاسيسها بأنها فى بيتها .. ليبتها معا ..
البيت الذى تفيض فرحها به على كل تصرفاتها .. حتى أنها أصبحت
تحمل مفتاحا للشقة خاصة بها .. مادام البيت بيتها ..

وهو بذكر والشقة لم يكتمل تأثيثها وليس فيها إلا مقعد أو
مقعدان أن كانا هناك عندما ثارت بينهما رغبة التلامس فاحتضنها
وترك نفسه لمنتهى عنقه كما عودها إلى أن يصل إلى ما يدفعها إلى
مقاومة هذا العنف .. ولكن من يومها وهما راقدان على أرض
الحجرة .. أرض خشبية بلا سجاد .. يومها لم تقاومه أبدا .. بل
عاشت كل عنقه حتى وصلت بنفسها إلى المنتهى .. منتهى العنف ..

ولم تعد عذراء ..

ولم يبد عليها شئ من الحسرة أو الندم .. لم تبد كأنها ضاع
منها شئ أو كأنها ضحت بشئ .. أن هذا كان ما تريده وما
قررتة هى .. لم يغتصبها .. إنها أقوى من أن تستسلم لاغتصاب ..
وقد بدأ يفكر فى الزواج بها أكثر ..

إنه هو المسئول ..

هو الذى جعل منها امرأة ليست عذراء ..

ثم إنه يستطيع أن يجد ما يبرر به زواجه محتفظا بصورة الشخصية
المصرية متكاملة ..

وقد بدأ يتحادثان فعلا عن الزواج .. ولكنها لا يتحادثان
جادين إنما يتعمدان أن يكون حديثهما كأنهما يتضحكان ..

...

وعثر رفعت على سر من أسرار برعى بك محمود .. وقد كشف
له عن السر صديقه الجديد ممدوح طوسون الذى يعمل فى مكتب
برعى .. ولكن ممدوح لم يكن يتصور أنه يكشف عن سر .. كان
يتصور أنها مجرد عملية عادية .. عملية بيع وشراء .. ولكنها سر
سر هائل ..

كان برعى محمود قد بدأ يعد لعقد صفقة توريد أسلحة إلى
مصر .. أسلحة أمريكية .. وقد استطاع أن يقيم علاقات قوية مع
كثير من ضباط الجيش الذين يتولون مراكز إدارية .. بل إنه وطد
علاقته مع وزير الحربية .. وصفقات الأسلحة لا تتم إلا بعد توزيع
إغراءات سخية على المسؤولين .. لاشك أن برعى قد وعدهم
بعمولات هائلة .. رشاوى .. ومعروف أن أمريكا سخية فى تعاملها
مع الوسطاء والمسؤولين ..

وهى أول مرة فى التاريخ يمكن أن تصل فيها أسلحة أمريكية
إلى مصر .. إن بريطانيا وحدها هى المسئولة عن تسليح الجيش
المصرى .. إنها تحتكر تسليح الجيش .. بل إن تسليح الجيش يدخل
ضمن مخطط الأمن لحماية الاحتلال .. لا تسمح بريطانيا أبدا بأن

يكون الجيش المصري أقوى من الاحتلال أو أن يصبح في حالة
يستطيع بها أن يعكس أمن الاحتلال .. وكانت بريطانيا تساهل
أحيانا في أن تترك لمصر الحرية في استيراد السلاح من أسبانيا أو من
إيطاليا .. بل ربما كانت تشترك في هذه العمليات حتى تتأكد من
أن الأسلحة التي تصل مصر لا تساوي شيئا إلا مجرد المظهر .. مظهر
التسلح .. وكلها أسلحة خفيفة وقديمة وفاسدة .. بل إنها تركت
المقاتلين المصريين أيام حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل يسرقون الأسلحة
من ثكنات الجيش البريطاني .. وكانت تعلم مقدما قيمة هذه الأسلحة
بالنسبة للمعركة وبالنسبة لتحقيق سياستها التي تفرض إقامة دولة
إسرائيل ..

ولكن هذه هي أول مرة تحاول فيها مصر استيراد الأسلحة من
أمريكا .. وكان أمريكا مستحل محل بريطانيا في تسليح الجيش
المصري وهو ما يهدف لتحل محلها في السيطرة على مصر .. هل توافق
بريطانيا على مثل هذه الصفقة .. لم لا .. إن بريطانيا في تحالف مع
أمريكا ولعلها اتفقت معها على أن تورد إلى مصر نفس الأسلحة
الخفيفة الفاسدة ومتفجرة معها على حماية أمن الاحتلال .. ولكن ..
هل اتصل برعى محمود بالسفارة البريطانية بخصوص هذه الصفقة
كما يتصل قطعاً بالسفارة الأمريكية .. هل تعلم بريطانيا بهذا السر
الخال .. إنه لا بدري ..

المهم أن يبلغ الخبر حالا إلى منصور باشا فكري .. قد يذهل
للخبر ويخرج رفعت من هذا الذهول باعتراف منصور باشا به
وتقديره له .. ولكن قبل أن يبلغ منصور باشا بالخبر يجب أن يبلغه
أولا للسفارة البريطانية .. إنه لا يقبل أن تصل معلوماته إلى السفارة
عن طريق منصور فكري .. يجب أن تحتفظ بعلاقته المباشرة بها ..
وإلا فقد السفارة واستغنت عنه وأصبح كأنه خادم من خدم منصور
فكري ..

وذهب إلى شقته في جاردن سيتي .. ورغم أن الساعة كانت
قد تجاوزت العاشرة فقد كان مصمما على أن يضي على الخبر أهمية
خاصة ، فرفع سماعة التليفون وطلب صديقه مستر مالوكولم ،
وقال وهو يعتمد أن يضمن لهجته رنة الخطورة :

— آسف لإزعاجك .. ولكنني أعتقد أنه خبر هام ..
وروى الخبر لمالوكولم .. واطمأن سعيدا عندما فهم أن
مالوكولم فوجيء به .. لم تكن السفارة البريطانية تعلم شيئا عن هذه
الصفقة .. وقال له مالوكولم في صوت نبرة المفاجأة :

— هل أنت متأكد مما تقول ..
وقال رفعت بلهجة يستر من خلالها فرحته :

— متأكد من كل كلمة ..
وقال مالوكولم في حدة كأنه خرج عن هدوئه الذي عرف به :

— من أين جئت بهذه المعلومات ؟

وقال رفعت وهو ينهيه بثقلته في نفسه وفي ذكائه :

— من نفس مكتب برعى محمود ..

وقال مالو كولم وكأنه ساهم :

— سئري ما يمكن عمله .. شكرا ..

ولاحقه رفعت قائلا قبل أن ينهى المكالمه :

— هل أبلغ الخبر لمنصور باشا .. إنه بهم دائما بكل ما يخص

برعى ..

قالها رفعت كأنه يستأذن بوصفه رجل السفارة لارجل منصور

فكرى .. وقال مالو كولم في هدوء :

— أبلغه .. لاشك أنه سيكون له دور كبير في هذه العملية ..

أكرر شكرى .. وإلى اللقاء ..

ووضع رفعت سماعة التليفون ثم عاد بعد أن التقط أنفاسه

ورفعها وأدار رقم منصور باشا فكرى ، رد عليه الخادم قائلا :

— إنه نائم ..

وقال رفعت في حدة :

— أيقظه .. إنه موضوع هام .. قلت لك أيقظه ..

وترك الخادم سماعة التليفون وظل رفعت منتظرا فترة إلى أن

سمع صوت منصور فكرى فقال له فورا دون أن يمهد بشجيه المساء

أو الاعتذار على إيقاظه :

— أريد أن أراك حالا .. الآن ..

وقال منصور باشا وهو يتشاءب :

— إلا تستطيع أن تنتظر حتى الصباح ..

وقال رفعت بسرعة :

— لولا أهمية الخبر لما تجرأت على إزعاجك في مثل هذه

الساعة ..

وقال منصور باشا في ضيق :

— أى خبر .. لتكلم في التليفون ..

وقال رفعت كأنه يلومه :

— لا .. لا أستطيع أن أتكلم في التليفون .. وأنت تعرف حال

التليفونات ..

وقال منصور باشا كأنه استسلم رغم أنفه :

— تعال .. سأنتظرك ..

وكان رفعت يعتمد أن يزعم منصور باشا وأن يفرض على

منصور باشا استقباله في هذه الساعة حتى يضيق على الخبر أهميته

الخاصة .. إن تبادل الأسرار الخطيرة لا يتم إلا في الليل وفي الخفاء ..
وهو ذكي لا يتهاون في أسرارها ويقدّر قيمتها ..

واستقبله منصور باشا وهو مترآخ يتعجل النوم ولكنه ما كاد
يسمع الخبر حتى انتفض من المفاجأة فاستيقظ كله وانطلق بريق
عينيه وهو يقول :

— لا يمكن .. إن تسليح الجيش هي مهمة قاصرة علينا
وحدنا ..

ويقصد أنها مهمة بريطانيا وحدها .. وأخذ يستزيد رفعت من
معلوماته إلى أن قال في حدة :

— هذه الصفقة لن تتم .. على جثتي .. وسأعلم برعي محمود
كيف يلتزم حدوده .. إنه يحلم بعالم جديد وسأفيقه من أحلامه ..

وخرج رفعت من لديه وهو مستغرق في التفكير حول العلاقات
بين بريطانيا وأمريكا .. إنها حليفتان ولم يكن يتصور أن العلاقة بين
الحلفاء يمكن أن تصل إلى حد المعارك حتى لو كانت معارك
تحتية .. على كل حال فإن ما اكتشفه بين بريطانيا وأمريكا يفتح له
مجالات جديدة واسعة للعمل .. وإن كان لا يدري بعد كيف يمكن
أن يستفيد من هذه المجالات ..

وانتظر في صمت وتباعد ما يمكن أن يحدث .. ومرت يوم وفي
اليوم التالي بدأت الإشاعات عن أزمة وزارية تهدد باستقالة الوزارة

دون أن تصل الإشاعات إلى أسباب هذه الأزمة .. ومع الأيام لم
تستقل الوزارة ولكن استقال وزير الحربية وحده .. أو عزل ..
طرد .. وقامت حركة تغيير واسعة بين المسؤولين داخل وخارج
الوزارة ..

وعرف رفعت أن صفقة استيراد السلاح من أمريكا قد
فشلت .. أغلقت في وجهها كل الأبواب .. ولعل الأزمة وصلت
إلى لندن وإلى واشنطن قبل أن تنتهي بالفشل .. وهو .. رفعت ..
إنه صاحب الفضل في القضاء على هذه الصفقة .. ولم يثنه أي
إحساس بلوم نفسه لأنه تسبب في حرمان الجيش المصري من
أمداده بالأسلحة الأمريكية .. إنها أسلحة سواء كانت أمريكية أو
بريطانية لا يمكن أن تصل بالجيش المصري إلى أكثر مما يريد له
الحليفان .. وهما يريدان دائماً أن يكون الجيش المصري جيشاً تابعاً
لها أو لأحدهما .. وما جرى بينهما ليس أكثر من المعارك الطبيعية
التي تجري في الأسواق .. الأسواق السياسية .. حتى في أسواق
الحلفاء ..

المهم ماذا سيخرج رفعت من هذه العملية ..

إنه يستحق مكافأة هائلة من بريطانيا .. إنه أنقذها سياسياً
بالاحتفاظ بسيطرتها على مصر وأنقذها اقتصادياً بالاحتفاظ لها
باحتكار توريد السلاح .. ولكنه كان من الذكاء بحيث لم يتقدم

بطلب مكافأة .. إنه يحتفظ بمظهر شخصيته حتى لا يبدو كأنه
شحاذ يشخذ ..

وذهب إلى لقاء مستر مالوكولم يحمل إليه أوراقا تحمل معلومات
هامة سجلها على الآلة الكاتبة الانجليزية .. إنه يعتمد دائما أن يحمل
إليه أخبارا هامة كلما كان يريد منه شيئا .. وبعد أن انتهى معه من
تفاصيل المعلومات بذلاقة لسانه يتحدث عن حياة العمل في
شركات منصور باشا فكرى .. وقاطعه مالوكولم في بساطة وبراعة
كأنه يتحدث كصديق لا كمستول عن رشوته :

— هل وجدت العمل الذي تستطيع أن تتفرغ له ..
وقال رفعت في بساطة أيضا :

— الواقع أنى استفدت كثيرا من دراسة نواحي العمل في
شركات منصور باشا .. وقد بدأت أفكر في الحصول على توكيل
لإحدى الشركات الأجنبية .. وقد قدرت أن أختار أن أكون
وكيلا في مصر لسيارات موريس ..

وضحك مالوكولم قائلا :

— لماذا سيارات موريس .. إنها سيارات صغيرة وضعيفة ..

وقال رفعت باسمها :

— ربما لهذا اخترتها .. فهي تدخل ضمن توكيلات شركات
منصور باشا .. ولكن الدخل الذي تحققه للشركة تافه لا يمكن أن

يؤثر في ميزانية منصور باشا، ولذلك فكرت أن أستاذته في أن يكون
التوكيل لى حتى أبدأ التجربة .. ولو أنى لم أبدأ المحاولة بعد في
انتظار أن أنتهى من تقدير مدى اهتمام منصور باشا بى وصداقته
لى .. لم أحادثه في الموضوع بعد ..

وقال مالوكولم وهو يربت على كتف رفعت كأنه يشفق
عليه :

— حادثه .. وسأتصل به ..

وقد انتظر بعدها يومين لعل منصور باشا فكرى يستدعيه إلى
مكتبه بعد أن يكون مالوكولم قد اتصل به .. ولكنه لم يستدعه
حتى يسأله عن أخبار غريمه برعى بك محمود .. وقرر رفعت أن
يطلب هو مقابلته ودخل إليه حاملا معلومات جديدة عن أخبار
فشل صفقة تزويد الأسلحة الأمريكية على برعى بك .. ليست
معلومات هامة ولكنها بلا شك تفرح منصور باشا ..

وفرض رفعت حق دعوته إلى الجلوس على مقعد .. ومنصور
باشا يستمع إليه وقد علق على شفته ابتسامة باردة هي كل ما يستطيع
إعطائه لرفعت اعترافا بفضلها .. ثم قال له مقاطعا كأن المعلومات
التي يسمعها منه لا قيمة :

— سمعت أنك تريد أن تحصل لنفسك على توكيل لسيارات
موريس ..

وقال رفعت وكأنه لا يبالي :

— إنها مجرد فكرة خطرت لي ..

وقال منصور باشا كأنه ينهى الموضوع :

— اتى موافق .. وسرسل إلى الشركة بتركيته وكيلا ..
ولكنك في حاجة إلى ضمان من البنك .. وأنا أعرف أنك لا تملك
أى قوة فى أى بنك .. وأنا لن أضمنك ولن أكفلك .. ليست
هذه من عادتي ولا من نظم شركاتي .. وسأتركك تعتمد على
نفسك مادمت تريد أن تدخل تجربة جديدة ..

وخرج رفعت وهو حائر :

لقد كان يعتمد على أن يحصل على توكيل شركة السيارات من
خلال شركة منصور باشا .. ولكن منصور باشا تركه وحده ..
كأنه بطرده .. فن أين يأتي بالرصيد الذى يضمن له هذا التوكيل ..
هل يؤلف شركة يضم إليها بعض الممولين ممن يعرفهم .. ولكن
الممولون قد يستهينون به ويعاملونه كشحاذ .. إنهم لا يعلمون حقيقة
قوته التى يعتمد عليها .. لا يعلمون أنه من أقرب أصدقاء السفارة
البريطانية .. ولن يصارحهم بحقيقته طبعاً ..

وفي نفس المساء اتصل به مالوكولم فى التليفون وقال له
بصوت مرح :

— لماذا لم تتصل بي .. إني عرفت بشروط منصور باشا حتى
يساعدك فى مشروعك .. اتصل بصديقنا مستر مايكل وكييل بنك
باركليز وسيعد لك كل شيء ..

وارتفعت ضحكة مالوكولم وهو يستطرد قائلاً :

— إني أعرف أنك صديق لمايكل أو على الأصح صديق ابنته
مجدولين وهى كل شيء بالنسبة لمايكل ..

وفرح رفعت بما سمعه واسترد معه آماله .. واتصل ساعياً
بمجدولين .. أو ماجي كما أصبح يدللها .. ودهش عندما وجدها
تعرف كل شيء وهى تؤكد له أن البنك سيضمن له توكيل
سيارات موريس .. إن والدها أكد لها أن البنك موافق .. وقد قابل
والدها فى اليوم التالى الذى استقبله بترحاب وقال له أن البنك سيبكفه
بضمان البضائع التى يستوردها .. أى بضمان ما يستلمه من سيارات
موريس .. وتولت ماجي بنفسها بعد ذلك تحريك كل الأوراق
حتى أصبحت العملية كلها فى يده ..

أصبح لأول مرة رجلاً من رجال الأعمال ..

وقد كانت العملية صغيرة لم تحقق له إلا أرباحاً بسيطة .. إن
أفخم سيارة موريس لم تكن تباع فى مصر بأكثر من خمسة جنيه ..
هكذا كانت أسعار السيارات أيامها .. ولم يكن يحقق فى كل
سيارة ربحاً أكثر من خمسين جنيهاً .. ورغم ذلك فقد كانت فرحته

بهذه الأرباح أضعاف فرحته بما حققه بعد ذلك من أرباح
الملايين ..

وكان الفضل كله لماجي ..

لماذا لا يتزوجها ..

إنه لو تزوجها فسيصبح بئسك بار كثير كله في يده وهو في حاجة
الآن إلى بئسك بل إلى كل البئسك ماذا قد أصبح من رجال الأعمال ..

إلى أن فوجيء بالصدمة الكبرى ..

لقد قتلوا منصور باشا فكرى ..

اغتالوه في وضوح النهار ..

...

وكان رفعت البيومى قد انتهى من تناول طعام العشاء وانتقل
وجلس غاطسا فوق الأريكة في البهو .. وقدم له البتلر كأس
البيرمنت .. كأس كحول النعناع الذى تعود أن يشربه بعد العشاء ..
ورفع الكأس في يده وشفتاه مزمومتان وهو يعيش ذكرى
صدمته .. ذكرى اغتيال منصور باشا فكرى ..

(٤)

كان أشد ما صدم رفعت البيومى عندما سمع باغتيال منصور
باشا فكرى هو وقع المفاجأة .. إنه يعلم أن منصور باشا يعتبر عدو
الشعب رقم واحد منذ أن بدأ يعرف وبجهر بأنه رجل الإنجليز رقم
واحد .. ورغم ذلك فلم يكن ينتظر اغتياله، وكان يعتقد أنه في
تقدير الحركة الوطنية يعتبر رجلا مفضوحا تافها لاشخصية له
ولا يستطيع أن يؤثر تأثيرا فعليا على الحركة الوطنية .. والأهم أنه
لا يستطيع أن يكون زعيما أو رئيس حزب يمكنه أن يتولى قيادة
الجهابذة والاتجاه بهم في طريق الحياة الوطنية .. حتى بعد أن بدأ
في تكوين حزب سياسى لم يقترب منه إلا أفراد معروفون من
أصحاب المصالح مع الإنجليز وليس لواحد منهم أى قيمة شعبية ..
ولا حتى يستطيع واحد منهم أن يلقي خطابا في تجمع جهابذة مفتوح
إنما إذا تكلم أحدهم فلا يتكلم إلا في حفل رسمى حكومى تحت حماية

البوليس .. ورغم ذلك اغتيل منصور باشا فكرى ... والذي يحرق نفسه أنه لم يحذر الإنجليز أو منصور باشا نفسه من هذا الاغتيال كما سبق أن حذرهم قبل وقوع كثير من الأحداث الهامة .. واغتيال منصور فكرى حدث هام ولاشك .. ومفاجآت هذا الاغتيال لاشك تفقده قيمته عند أصدقائه الإنجليز وتبر ثقتهم به .. لم يعد الصديق الذي يمدحهم بأهم وأصدق المعلومات .. وقال لنفسه في غضب على نفسه أنه ربما بعد أن أصبح رجل أعمال ووكيلا لشركة أرستقراطية في مصر أهمل في التفرغ لعمله الأساسي .. الرجل الذي يجمع المعلومات .. وقد أهمل فعلا .. إن اتصالاته بمصادر أخباره قد خفت واندماجه في التحركات الوطنية على اختلاف اتجاهاتها قد فتر ..

ولكن ..

إذا كان قد عجز عن اكتشاف نية اغتيال منصور باشا فكرى فيجب أن يثبت ذكائه وموهبته باكتشاف أسرار عملية الاغتيال .. وكان البوليس قد قبض على كل الأفراد الذين قاموا بالعملية .. إنهم كلهم من الشبان ولم يسبق له أن عرف أو التقى بواحد منهم رغم العشرات الذين يعرفهم من الشبان الوطنيين القدامى الذين يمكن أن يقدموا على قتل أعداء الوطن أو أعداء الحزب .. وقد قال هؤلاء الشبان في التحقيق أنهم لا ينتمون إلى أي حزب من الأحزاب ولا إلى أي تنظيم .. إنهم من الوطنيين المستقلين الأحرار .. لاشك أنهم

يكذبون .. وحتى لو كانوا فعلا من المستقلين الأحرار فإن أي عملية تتم مفروضة أن يكون وراءها محرض ومخطط ومنظم .. فمن هو أو من هي الجهة التي حرّضت ومخططة ونظمت هؤلاء الشبان حتى قاموا باغتيال منصور باشا ..

وكان من أول ما أثار فكره أن كل هؤلاء الشبان ينتمون إلى الطبقة الراقية أو إلى مستوى فئة الطبقة المتوسطة .. إنهم من أولاد الذوات .. ليسوا من الطبقة الشعبية التي تتحمل مسؤولية تنفيذ العمليات الوطنية أو الحزبية .. وربما لهذا لم يلتق بهم من قبل فقد كان يحضر تحركات داخل الطبقة الشعبية .. وطبقة أولاد الذوات حتى لو كانوا من أعضاء الأحزاب يرفعون عن القيام بالعمليات الحزبية الشعبية .. إنهم يضعون أنفسهم داخل الأحزاب في مستوى القيادات .. يكنى مجرد وجودهم في انتظار أن يصل الحزب إلى الحكم فيصبح كل منهم وزيرا .. إن غرائزهم الأرستقراطية الرأسمالية المتعالية تتحكم فيهم بالنسبة لأي قضية وطنية .. بل إن له صديقا شابا من أولاد الذوات انضم إلى تنظيم شيوعي .. ربما لأن أفراد التنظيم أشبعوا فيه غريزة التعاطف والإحساس بأهمية نفسه ووجوده .. وكان هذا الشاب يملك إرثا عن أبيه أكثر من ألف فدان من الأراضي الزراعية الخصبة السخية .. وقد سأله مرة مدعيا البراءة .. هل توزع الأرض على الفلاحين أو على الأصح توزع عليهم دخل الأرض كما تفرض المبادئ الماركسية .. وثار ابن

الدوات الماركسي رافضا مجرد الفكرة - ويرر ثورته بأن توزيع توزع أرضه ليس من الأهداف الماركسية ويجب أن تبقى الأرض في يده إلى أن يقتنع الشعب بأن الأرض لا توزع عن طريق الإحسان أو البقشيش، أو لأن هناك صاحب أرض يريد توزيعها بل الأرض لا توزع إلا بقيام ثورة ماركسية تستولى على كل أرض مصر .. وفي نفس الوقت كان معروفا عن هذا الماركسي ابن الدوات أنه من أنخل البخلاء ومن أعنف أصحاب الأرض في محاسبة الفلاحين .. المبادئ مظاهر والانتفاء الطبقي غريزة ..

فمن الذي حرص هؤلاء الشبان أولاد الدوات ونظم لهم وخطط عملية اغتيال منصور باشا ؟

واعتمادا على عبقرية ذكائه استطاع بسرعة أن يكتشف بذور الحقيقة .. ولكنه يجب أن يتأكد .. وتفرغ للوصول إلى أوسع المجالات التي يمكن أن يستقي منها المعلومات .. إلى أن تأكد ..

إن الذي حرص ونظم وخطط عملية اغتيال منصور باشا هو القصر الملكي .. ويعلم الملك فاروق نفسه .. وكان يعرف أن القصر قد أقام منذ سنوات تنظيما سريا أصبح يعرف بين التنظيمات باسم الحرس الحديدي .. وكان تنظيما يدعي التطرف الوطني حتى يرر تهديد كل الشخصيات الوطنية .. بل إن هذا التنظيم كان يعارض أحيانا تصرفات القصر الملكي حتى ينفي عن نفسه شبهة الانتماء إليه .. وكانت أغلبية أفراد هذا التنظيم - كما اكتشف

رفعت فيما بعد - ينتمون أيضاً إلى الطبقة الراقية أو المستوى الأعلى من الطبقة المتوسطة .. نفس الطبقة التي ينتمي إليها قتلة منصور باشا .. ولكن الواقع - كما اكتشفه رفعت - هو أن القتلة لم يكونوا من أفراد الحرس الحديدي .. ولكن قيادة الحرس عرفهم بهورهم واندفاعهم وهوايتهم لإطلاق النار تأثرا بأفلام السينما الأمريكية فسلط عليهم أحد أفرادهم الذي استطاع أن يدفعهم لقتل منصور فكري .. وهم لم يقتلوه لأن الملك يريد قتله بل لجرد أنه عميل إنجليزي خائن ومن أعداء الشعب .. إلى هذا الحد كانوا سادجا .. وطنيين لاسباسيين ..

ولكن .. لماذا كان فاروق يريد قتل منصور فكري .. ربما لجرد أنه يستغل علاقته بالإنجليز في خدمة حزب الوفد متجاهلا القصر حتى يكاد يقضي على كل ما للقصر من قوة ..

وجمع رفعت اليوم كل هذه المعلومات وزودها بأدق التفاصيل وسجلها في صفحات متعددة كتبها بالآلة الكاتبة الإنجليزية وقدمها إلى صديقه مالبوكولم ممثل السفارة البريطانية ..

وربما كانت السفارة البريطانية تنجبه إلى نفس الاتجاه الذي يرى إلى اتهام القصر بقتل منصور باشا .. ولكن هذا الاتجاه تأكد بالمعلومات التي قدمها رفعت .. ثم تأكد أكثر بسير محاكمة المتهمين فقد استطاعوا بنفوذ القصر أن يهربوا كلهم دون أن ينال أي منهم

أى حكم .. حتى رجال القصر أنفسهم كانوا يدافعون عنهم في
أحاديثهم وإجراءاتهم .. ولم تبد أى محاولة للتأثر لمقتل منصور باشا
بتتبع قاتليه .. إن منصور باشا لم يكن له حزب .. ولا صديق ..
كل من عرفوه كانوا يعرفون الإنجليز .. لا يهم منصور إنما يهمهم
الإنجليز ..

ولكن بريطانيا هي التي قررت التأثر لاغتيال منصور فكرى ..
من يومها لم يستطع الملك فاروق أن يحكم .. وكان لا يستطيع
أن يقيم وزارة تحكم .. كل شهر أو شهرين يبحث عن وزارة جديدة.
وربما كان السبب هو جهل فاروق نفسه وتفاهة والمخطاط شخصيته
ولكن السبب الأول والأهم هو الإنجليز كانوا قد قرروا الاستغناء
عنه ..

ويضحك رفعت البيومي سعيدا متباهيا بنفسه .. لقد كان السبب
في القضاء على فاروق .. ولو أنه لم يكن يعرف شيئا عن الثورة .. ولا
الإنجليز أيضا كانوا يعرفون ..

وقد كان مقتل منصور باشا هو نقطة التحول الكبيرة في مستقبل
وشخصية رفعت البيومي .. لقد ارتفع مدى اعتماد الإنجليز عليه ..
بل إنه في الواقع حل محل منصور فكرى في الاعتماد عليه .. أصبح
واقعا رجل الإنجليز الأول .. ولكن ذكاه كان قد تزود من
تفاصيل حياة منصور فكرى .. إنه لن يكون أبدا مثله حتى لو
تحصل كل مسئولياته ..

وكان الدرس الأول الذي تعلمه هو ألا يعرف عنه أبدا أنه
رجل الإنجليز رقم واحد وإلا أصبح العدو الشعب رقم واحد وقتلوه
كما قتلوا منصور فكرى .. وهو منذ البداية وهو يراعى إخفاء كل
علاقته بالإنجليز حرصا على علاقته بالوطنيين .. وهو الآن بعد
أن أصبح من رجال الأعمال في حاجة أن يبذل مجهودا أكبر في إخفاء
نفسه .. فقد أصبح في حاجة إلى شخصيته الإنجليز ليتعامل في مجال
الأعمال ولكنه أيضا في حاجة إلى إخفاء هذه الشخصية حرصا على
مكانته السياسية الوطنية وحماية نفسه .. والإنجليز أنفسهم يجب أن
يعدلوا من معرفتهم منه وتقديرهم لشخصيته .. يجب أن يفهموا
أنه ليس عميلا ولا جاسوسا ولكن يعاملونه على أنه صديق لهم ..
وفرق كبير في المعاملات الدبلوماسية بين العميل والصديق .. إن
العميل أو الجاسوس موظف عندهم يتقاضى راتبا محددًا عن خدماته.
أما الصديق فليس موظفا لديهم .. إنه مجرد صديق حر يسعى
وراءه أكثر من أن يسعى وراءهم .. ثم إنه لا يتقاضى منهم راتبا
أو أتعابا تقدم له في أظرف مغلقة تضم جنبيات .. بل يتقاضى منهم
خدمات وتسهيلات للأعمال التي يقوم بها .. أى أنه لم يعد مضطرا
مثلا إلى أن يكتب معلومات على الآلة الكاتبة ويقدمها إلى صديقه
مالوكولم .. يكفي أن يجتمع به كصديق ويتحدثا حديث الأصدقاء
ويضمن حديثه كل معلوماته .. وعلى مالوكولم أن يستفيد من هذه
المعلومات دون أن يقدمها له في ورقة مكتوبة .. وقد اقتنع أصدقاؤه

بالتجاهد الجديد .. فهموه .. إن كثيرا من العملاء يتطورون ويصرون على أن يرتفعوا إلى درجة الأصدقاء ..

وكان الدرس الثاني الذى تعلمه هو ألا يتخذ أبدا موقفا سياسيا محمدا معلنا يعرف به .. يجب أن يتجنب أن ينسب نفسه أو ينسب الناس إلى جهة معينة فى مجالات السياسة الداخلية .. أى ألا ينسب إلى القصر .. أو إلى حزب من الأحزاب .. أو إلى أى تنظيم من التنظيمات .. كما هو حريص ألا ينسب إلى الإنجليز أو الأمريكان .. وإلا قتل كل قتل منصور باشا الذى قتله القصر لأنه كان مرتبطا بحزب الوفد .. يجب إن يكون على اتصال بكل الأحزاب وكل الهيئات ويترك كل هيئة تعتقد أنه أحد رجالها حتى وإن لم يقبل أن يكون فردا من أفراد التنظيم التابع لها .. ولذلك ظل حتى بعد أن أصبح شخصية كبيرة معروفة يرفض أى منحة تحاول إحدى الجهات أن تسبغها عليه .. يرفض رتبة البكوية التى حاول رجال القصر أن يكسبوه بها .. ورفض أن يكون وزيرا رغم أن أكثر من حزب عرض عليه الوزارة .. لا يريد أن يكون أو أن يعرف بأكثر من أنه رجل أعمال ..

وقد اتسعت أعماله وامتدت بشكل عجيب وبسرعة مذهلة .. وكان الإنجليز قد اعتبروه فعلا خليفة منصور باشا فكرى بل إنه أخذ فعلا كثيرا من التوكيلات الخارجية التى كانت لمنصور فكرى .. توكيلات الاستيراد علاوة على السيطرة على كثير من المنشآت ..

كانت أى مناقضة لمشروع حكومى بتقديمها ترسو عليه .. وقد تحمل بذلك عدااء كثير من رجال الأعمال من مقاولى المشروعات الحكومية .. ولكنه لم يهتم بهم .. ليس لهم قوة شعبية أو رسمية يستطيعون أن يحاربوه بها ..

وفى الوقت نفسه وخلال اتساع أعماله بدأ يكون تنظيما داخل شركاته وأعماله لجمع المعلومات .. كل أنواع المعلومات .. إنها فكرة أخذها أيضا من منصور باشا فكرى رحمه الله .. إنه هو نفسه عين فى مكتب منصور باشا كرجل معلومات وبتوصية من السفارة .. ولكنه لن يكون كمنصور باشا .. لن يترك للسفارة حق وضع رجالها فى شركاته كما سبق أن وضعت هو .. إنه يريد أن يحتفظ باستقلاله حتى يستطيع أن يحمى نفسه .. كثير من الملاحظات والظروف التى يقدرها فى رسم حياته لا يقدرها ولا يفهمها الإنجليز فيجب أن يحتفظ باستقلاله فى كل ما يخصه .. ولا شك أن الإنجليز سيفهمونه ويقدرونه .. وعندما اتصل به مالوكولم وطلب منه لأول مرة تعيين شخص — نسى اسمه — موظفا فى شركته اعتذر .. رفض .. وفى لقاء خاص مع مالوكولم أقنعه ألا يحاول السفارة فرض أى موظف عليه ، وهو كفيل بأن يجمع الموظفين الذين يمدونه ويمدون السفارة بالمعلومات .. واقتنع مالوكولم بسرعة .. إن الإنجليز يأخذون كل عميل أو صديق يعقلته ويستسلمون لهذه

العقلية ماداموا يستفيدون منه حتى إذا انتهى ما يستفيدونه منه تخلوا
وطردوه من ديارهم هو وعقليته ..

وقد بدأ رفعت البيومي يكون التنظيم الخاص به معتمدا على
ذكاء مدهش .. إنه يختار أفراد التنظيم من الشبان المعروفين بتطرفهم
الوطني أو بتاريخهم الوطني .. الشبان الذي عرفهم وصادقهم منذ
أيام حي الدراسة وحتى الظاهر ومن خلال التجمعات الحزبية التي
يتردد عليها ، وبعضهم كان يعرف أنهم من أفراد التنظيمات السرية
التي تقوم بالعمليات الوطنية العنيفة بما فيها عمليات الاغتيال .. إن
معظم هؤلاء الشبان انتهوا من دراستهم ولم يصلوا إلى شيء إلا أن
يكونوا من صغار الموظفين .. وكان كلما تعمد لقاء واحد منهم قال
له في تواضع .. أن الله من عليه وأصبح يدير أعمالا واسعة وأنه
يعرض عليه أن يشترك معه في العمل استمرارا لصادقتهما .. ثم
يقول في حماس كأنه يلقي خطابا وطنيا .. إن الأعمال مهما اتسعت
لا يمكن أن تعفينا من مسؤوليتنا الوطنية .. مهما أخذت الأعمال من
جهدنا فلا يمكن أن ننسبنا ما يجري في البلد .. لا يمكن أن تشغلنا عن
كل كبيرة وصغيرة من أحداث الوطن .. إلى لا يمكن أن أَرْضَى
لنفسى أن أنسى أو أتجاهل بلدى متفرغا للتجارة والتصدير والاستيراد
والأعمال حتى لو انتهى بي ما أوديه من واجب نحو بلدى إلى الافلاس ..
لقد ولدت مفلسا وأتعمل أن أعود مفلسا ولكنى لا أتحمل أن أتجاهل
بلدى أو يكون في جيبي قرش بينما بلدى مفلسة ووطنيا وسياسيا ..

مفلسة في العدالة وفي حق الحياة الحرة الشريفة .. وبصراحة لقد
اخترتك لتعمل معى لأنى لا أنسى أبدا تاريخك الوطنى ولأنى واثق
أن روحك الوطنية ومسئوليتك الوطنية لن تخفت أبدا ..

وكان يقول مثل هذا الكلام لكل من يتعمد لقاءه ثم يعرض
عليه مرتبا مغريا لا يبالغ فيه حتى لا يثير شكوكه .. يكنى أن يكون
ضعف المرتب الحكومى المعروف .. وقد استطاع أن يجمع في
مكاتبه كثيرا من هؤلاء الموظفين وعلى مختلف الأنواع .. شبان
كانوا من حزب الوفد .. أو كانوا من الإخوان المسلمين .. أو
كانوا من التنظيمات السرية ، بل إنه استطاع أن يجمع حوله بعض
ضباط الجيش .. إنه يعرف أن الجيش أصبح يضم أكثر من تنظيم
سياسى وطنى .. ولا يستطيع أن يقدر قوة وقيمة كل تنظيم وإن
كانت كلها تنظيمات تدعو إلى الثورة ، ومن الأفضل أن يكون
على صلة بها جميعا دون أن يدفع أحدهما على الآخر .. ولم يكن
يعرض على الضباط وظائف في شركاته .. إن قيمتهم لديه في
وجودهم داخل الجيش .. ولكن هناك كثير من الخدمات البسيطة
يقدمها لكل من يطمع في خدمة .. كأن يخفض ثمن سيارة يبيعها
له .. أو يعطيه قطعة قماش من القماش الذى يستورده هدية له ..
أو يدعوه على العشاء في السهرات المتباعدة التي كان يقيمها للشبان
الوطنيين .. وكانوا كلهم على اختلاف اتجاهاتهم يتعمدون ويبدلون
جهدا صادقا في جمع المعلومات السياسية والوطنية .. لقد عرفوا

ان ارضاء صاحب العمل لا يكون إلا بامدادهم بالمعلومات الوطنية ..
لأنه رجل وطني .. ولا يشكون أبدا في نيته أو فيما يفعل بهذه
والمعلومات التي يمدونه بها .. وهم في الوقت نفسه في حاجة إلى
ارضائه .. أكل عيش ..

وقد زودته هذه المعلومات بقوة هائلة يفرض بها شخصيته
ومطالبه على السفارة البريطانية خصوصا وأن الحالة في مصر كانت
قلقه وكل ما فيها متوتر بعد أن قرر الانجليز التخلي عن الملك فاروق
وتركوه دون أن يقدموا على حمايته ودون أيضا أن يخططوا لما يمكن
ان يحدث لمصر من بعده ..

وفي تلك الأيام التي كان يخطط فيها رفعت البيومي مجده كانت
قد بدأت تلج عليه فكرة لا تريد ان تفارق ذكاؤه ..

كان يفكر في مصيره مع برعي بك محمود الذي يقال عنه انه
رجل أمريكا الأول في مصر ..

لقد كان منصور باشا يكره برعي بك ويعاديه معاداة عليه
ويحقد عليه أو على الأصح يغار منه .. وكان يقال عنه أنه أخطر
شخصية على مستقبل مصر .. ربما كان منصور باشا يقصد انه أخطر
شخصية على مستقبل الانجليز في مصر ..

ولكن لماذا يعادى هو برعي بك محمود ؟ وإذا كان يعتبر رجلا
أمريكا في مصر فان بين أمريكا وبريطانيا تحالفا عالميا قويا كاملا ..

وإذا كان بينهما خلافات أو معارك فهي مجرد معارك تنفيذية سطحية
في استغلال كل منهم لقوة وجوده .. معارك مفروضة كمعارك أكل
العيش بين الأفراد .. وحتى لو اشتدت المعارك الى حد أن قضت
أمريكا على الامبراطورية البريطانية أو على الأقل افقدتها سيطرتها
على العالم ، فان بريطانيا حتى بعد هذا ستبقى في تحالف مع أمريكا ..
ستبقى معها في جهة واحدة وخط واحد ..

فلماذا لا يحاول رفعت بيومي باعتباره رجلا السفارة البريطانية
أن يقيم تحالفا مع برعي محمود تحقيقا لصورة التحالف بين أمريكا
وبريطانيا .. حتى لو استمرت المعارك بينهما في التحقيق الصفقات
وفرض النفوذ .. اليس معارك ولكنها نوع من التنافس بين دكاكين
من الدكاكين السياسية والتجارية المشروعة .. وكان رفعت البيومي
ودكان برعي محمود ..

وانتهز رفعت فرصة التقاؤه ببرعي في إحدى الحفلات العامة
وقدم له نفسه .. واستقبله برعي في بساطه وبعينين ثابتتين وابتسامة
أقرب الى الاستهانة كأنه يعرفه من زمن طويل .. يعرف كل شيء
عنه .. ولم يهتم رفعت بما عبر عنه لقاء برعي .. لا يهم .. كل منهما
يعرف عن الآخر كل شيء ..

وقد انهر رفعت بشخصية برعي منذ التقى به .. انه ليس من
جيل المرحوم منصور باشا فكري .. انه اصغر سنا ويعتبر من قادة

الجيل الذي بدأ يؤمن بأمريكا منذ انتهاء الحرب العالمية .. وهو يبدو
لا يكرر رفعت بأكثر من عشر سنوات وإن كان بريق عينية
وضحكته المستمرة التي يغطي بها اسئلته وكلبائه تجعله يبدو كأنه
في سن رفعت .. وبرعى يعرف عنه انه لا يخفى نوازع شبابه ..
أن مغامراته مع النساء يعلنها كأنه يتباهى بها .. ثم أنه يهوى المظاهر ..
لقد قبل رتبة البكويه التي منحها له القصر ، وقبل أن يكون عضوا
في مجلس النواب بتفوذ حزب لا ينتمى اليه وكل ذلك نظير خدمات ..
وهو في الوقت نفسه نشيطا نشاطا كاسحا .. نشاطه أمريكي لا يخضع
للتقاليد المحتشمة المتعالية الكسولة التي تفرضها الطبيعة الانجليزية ..
ولكنه من ذكائه لا ينسب نفسه لأمريكا رغم كل ما يقال عنه ..
أنه يعتمد أحيانا أن يهاجم أمريكا ويدعى أن اعجابه بها محصور
في قوتها الاقتصادية لا السياسية ..

واستطاع رفعت أن يستغل لقاءه برعى ويعدد لقائه به .. وكان
يجد دائما مبررا لطلب أي لقاء وكان حريصا أن يردد أمامه أنه
يعتبره أستاذه وأنه يتمنى أن يتلقى منه الدروس والنصائح دون أن
يعتمد أن يدور بينهما حديث عن السياسة أو عن اتجاه بريطاني أو
أمريكي .. الحديث كله دائما عن العمليات .. وفي عيني برعى
دائما هذه النظرة الناقدة الى رفعت وهذه الابتسامة كأنه يستهين به ..
وبرعى لا يهتم .. يكفي أنه يستطيع أن يصل اليه ..

ووصل رفعت إلى حد أن عرض مشروعاً يشترك فيه مع برعى ..
أن برعى اشترى أو استولى على مساحة واسعة من الأرض تبلغ
آلاف الأفدنة ليقيم عليها مشروع زراعي ضخم .. سيحتكر قوة
القطن والقمح اللذان يتحكمان في حياة مصر .. وذهب اليه رفعت
وقال له أن وكيل أكبر شركة للآلات الزراعية في بريطانيا وأنه
مستعد أن يورد له كل ما تحتاجه من آلات .. وذلك نظير أن يكون
شريكا معه في المشروع وإذا رفض الشركة فهو مستعد أن يسلمه
الآلات بثمن مخفض جدا وهو واثق أن عدد الآلات التي يحتاج
اليها المشروع ستعوضه عن قيمة التخفيض ..

وضحك برعى ضحكته التي تعبر عن الاستهانة وقال :

— لست في حاجة إلى شريك .. ان الشركة لن تخدمك إلى
مدى تصورك ..

وفهم رفعت أنه يقصد أن الشركة لن تكون في خدمة الاغراض
البريطانية التي يعرف برعى أنه يمثلها أو يعبر عنها .. ورغم ذلك
أخذ يغريه بأن يشتري منه الآلات أي أن يكون متعهدا بشركة
بكل ما تحتاجه من آلات ..

واستطاع فعلا أن يقنع برعى ..

ووضع أول أسس التحالف بينهما ..

التحالف بين بريطانيا وأمريكا ..

واستمر هذا التحالف طويلا .. تحالف ينبض بأعنف ما يصل
إليه الذكاء .. ينبض بالكرهية والحقد ويكاد ينبض بالدم ..

ورفع رفعت اليومى كأس البرمنت إلى شفثيه ورشف رشفة
صغيرة ثم علت شفثيه ابتسامة رقيقة مهذبة .. لقد عادت به ذكرياته
فجأة الى مجدولين ..

أنه لا يستطيع أبدا أن ينسى مجدولين ..

لاشك أنها ساهمت في بناء شخصيته التي نجح بها .. وكانت
دون أن تتعمد تكاد تكون استاذته .. معلمته .. تعلمه كيف يفكر
بأسلوب جديد .. الأسلوب الانجليزي العالمى .. وتعلمه كيف يعيش
ويعاشر مجتمع جديد لم يكن يخطر على باله أنه سيعيش فيه .. مجتمع
يفرض تقاليده ويتعالى بها كأنه مجتمع يعيش في السماء فوق البشر ..
وهو يذكر أنها تسلت داخل هذا المجتمع حتى وصلت به الى نادى
الجزيرة الذى كان أيامها محرما على المصريين .. لا يدخله الا طبقة
كبار الموظفين الانجليز وأفراد العائلة الحاكمة .. العائلة الملكية ..
أنه ناد أقامه الانجليز وسمحوا للعائلة الملكية بالدخول تأفقا ولجود
الاحتفاظ بالمظاهر الانجليزية .. وقد أصبح هو يدخل نادى الجزيرة
كأنه من العائلة الحاكمة .. عائلة كفر البطيخ .. بل أن مجدولين

علمته فى نادى الجزيرة لعبة الجولف .. وقد تشبث بلعبة الجولف
وتعمد أن يبذل مجهودا كبيرا ليتعلمها .. لا لأن الرياضة فى طبيعته ..
أبدا .. أنه لم يكن يثير انتباهه أو يحرك احساسه شئ يسمى الرياضة ..
حتى وهو صغير لم يكن يلعب أبدا مع الصغار الكرة الشراب
أو عسكر وحرامية أو استغاية .. ولكن الجولف شئ آخر ..
أنه لعبه أولاد الذوات .. لعبة الحكام .. ولم يكن يعلم أن كثير من
الصفقات الضخمة وكثير من الاتفاقات السياسية تم خلال المشوار
الطويل الذى يقطعه اللاعبون فوق حشائش وبين أشجار أرض
الجولف .. وهو إلى الآن يلعب الجولف .. وفى مواعيد محددة
لا تتغير أبدا كما هى عادة الانجليز .. يلعب ثلاثة أيام فى الأسبوع ..
ويبدأ اللعب فى الساعة الثامنة صباحا حتى العاشرة .. وقد استفاد
كثيرا من الجولف .. كثير من الأصدقاء وكثير من الأعمال
والصفقات وإن كان لم يتفوق أبدا كلاعب جولف ..

ومجدولين هى التى غرزت فيه ذوقه ومذاجه بالنسبة لكل
تفاصيله .. وهو عندما يتجول بعينيه فى أنحاء بيته يحس بمجدولين ..
أن هذا الذوق فى اختيار قطع الأثاث ونثر التحف وتعليق اللوحات
هو ذوق مجدولين .. الذوق الانجليزي .. وهى نفسها التى قامت
بتأثيث أول بيت كان لها .. شقة جاردن سبى .. ولكنه هو نفسه
الذى أثبت الشقة التى أصبحت له .. الشقة المظلة على النيل .. نفس
الذوق بتفاصيل أوسع وأغلى .. الذوق الانجليزي .. ذوق مجدولين ..

بل أن الخدم الذين يعملون في البيت .. كلهم على الطراز الانجليزي ..
كان لا يمكن ان يضع في بيته نظام البتلر كبير الخدم إلا إذا كان
قد تأثر بمجدولين .. بل حتى أصناف الطعام التي تعودها .. كلها
أصناف انجليزية .. ولم يعد يستطيع أن يعيش دون تناول شاي
الساعة الخامسة ..

وقد عرف بمجدولين وسط هذا المجتمع الانجليزي المصري ..
هو الذي عرف بها وليست هي التي عرفت به .. انها انجليزية وهي
ابنة وكيل بنك باركليز فهي الأهم .. وربما كان الكثيرون يحصلونه
على علاقته بها رغم أنها ليست جميلة .. بل أن قيمتها لا تقاس بأنها
امراه .. انها انجليزية ابنة وكيل باركليز .. وربما لم يكن البنات
الانجليزيات يحسدن مجدولين عليه .. فهو ليس وسيا وقصير القامة
ولا يمتاز بمظهر الفحولة والاثارة الذي يمتاز به كثير من الرجال
المصريين .. انه مجرد شاب عادي من مئات الشباب الذين يقدمون
انفسهم خدما للانجليز .. وقد كانت مجدولين تعطيه الكثير .. كانت
معه كل يوم تقريبا .. وكانت تحمل مسئولية بيته .. وكانت تساعد
في كل عمل تستطيع أن تساعد فيه .. ولكنها كانت تمتاز بأنها
واقعية عملية .. لقد وضعت خطاطا محده لعلاقته بها لا تخرج عنها ..
لا تعطيه أكثر ولا أقل .. وهي كما عودته لم تكن تثير موضوع
الزواج .. كأنها لا تريد .. ولكنها تتركه يأمل في زواجها وتركه
الفكره تنطلق كلما راودته .. أي أنها ليست فتاة عاطفية تهور وراء

عواطفها .. أنها لا تحب هذا الحب الذي يسمع عنه .. ولكنها
واقعية .. تعطى لأنها تريد أن تأخذ .. انه هو أيضا لا يحب هذا
الحب .. انه أيضا صاحب فكر واقعي .. يعطى لأنه يأخذ .. وربما
كانت هذه الوحدة في الفكر التي جمعت بينهما كل هذه السنوات ..
إلى أن قتل منصور باشا فكري ..

وقد رفعت البيوى أن يعدل عن كل ما يشبه منصور باشا ..
أن منصور باشا كان يجاهر بأنه انجليزي فيجب أن يخفى هو كل
مظاهر صداقته بالانجليز .. ومنصور باشا كان متزوجا من انجليزية ..
أن الزواج من انجليزيات يبرز ويؤكد الشخصية الانجليزية على الرجل
المصري .. ورفعت لن يتزوج من انجليزية .. لن يتزوج من مجدولين
.. وعدل نهائيا عن التفكير في الزواج بها .. بل أنه يجب أن يتعد
عن شخصيتها .. الشخصية الانجليزية .. وإذا كانت علاقته بها
معروفة في المجتمع العالي فإن الكلام يمكن أن يصل إلى الطبقة
الشعبية .. ولن يقال أنه يحبها أو أنها تحبه بل سيقال أنه خائن يسعى
إلى الانجليز ويستغله الانجليز .. أن مجدولين هي الوسام الانجليزي
الذي يضعه على صدره ويفضحه أمام الناس .. ويجب أن يخلع هذا
الوسام .. وبدأ يتباعد فعلا عن مجدولين .. وهو تباعد لم يكلفه شيئا
فقد استقبلت مجدولين تباعده في برود .. وقد قال لها يوما :

— أن منصور باشا قتل لأنه كان معروفا بأنه أقرب أصدقاء
الانجليز ..

وقالت في بساطة :

— أعرف .. وهو ما أثار لندن ..

وقال رفعت وهو يتسم كأنه يتحسر :

— وكان معروفا أنه متزوج من انجليزية .. أن الناس في مصر

يعتبرون الزواج كأنه قضية وطنية ..

وقالت مجدولين ضاحكة :

— لا تزوج من انجليزية .. حتى لا تقتل .. قد يقتلك المصريون

أو الانجليز .. فالانجليز أيضا يعتبرون الزواج قضية وطنية ..

وبدأت مجدولين تتباعد هي الأخرى .. في برود .. ولكن

صداقتهما لم تنقطع .. أنها يتحدثان في التليفون بين كل وقت وآخر ..

وترسل له الدعوات بانتظام كما تعودت وأن كان قد أصبح يذوق

في اختيار الدعوة التي يليها .. بل أنه كان يعاني أحيانا الحرمان ..

أن مجدولين هي المرأة الوحيدة التي دخلت حياته حتى اليوم ..

دخلت فراشه ودخلت في جسدها .. فكان يدعوها إلى البيت في ليالي

متباعدة .. وتبلي الدعوة في بساطة .. أنها تعلم أنه محروم ويريد

التخفيف من حرمانه وهي أيضا محرومة وإن كان حرمانها لا يلح

عليها كما يلح عليه .. أنها أقوى في برودها .. وما بينهما صداقة

تحتل كل شيء .. وهي صداقة تعيش حتى اليوم .. وكلما سافر

إلى لندن التي بها .. لقد أصبحت عجوزا ولم تزوج بعد .. وهو

مس حتى اليوم كلما التقى بها أنها استأذنه .. صاحبة الفضل في

كوين شخصيته .. ويستفيد من دروسها وذوقها حتى في شراء

قطعة جديدة من لندن يضعها في بيته ..

وأيامها .. وفي أوقات فراغه .. بدأ يفكر .. لماذا يكتبي مجدولين

ويحصر نفسه في تعوده على جسدها .. لماذا لا ينطلق في أشباع

فحولاته .. لقد وصل إلى مركز وثوراء يكفيه ليصل إلى كثير من النساء

حتى لو كان من هذا النوع من النساء .. أن برعى محمود معروف

بمغامراته النسائية ورغم ذلك فمغامراته لا تؤثر في مركزه أو في منجته ..

وربما لأنه يؤكد وطنيته يحصر مغامراته بين النساء المصريات ..

فلماذا لا يغار هو الآخر ليحرق نفسه من الحرمان ..

وكان لديه موظف في الشركة قريبا في عمله .. لاشك أنه

كان موظفا كفو .. ولكن عيبه أنه كان يقدم زوجته في كل مناسبة

وأحيانا في مناسبات لا تفرض عليه تقديمها .. ولا شك أن زوجته

خيرية كانت مشيرة وكانت تتباهى بأنها مثيرة وتبدو كأنها تعتمد

إثارة كل الرجال .. لقد كانت تعتمد إثارة هو شخصيا في كل

مناسبة يلتقيان فيها .. وكان يرفع على هذه الإثارة ويعتمد الابتعاد

عنها وهو يبدى سخطة وقرقه .. ولكن لماذا يتعالى .. لماذا لا يحاول

ويجرب .. وفي حفل من حفلات المناسبات التي تقيمها الشركة

تقدمت مع زوجها لتحييه وهمت أن تتباعد بسرعة بعد أن كانت

قد يثبت منه ولكنه استوقفها وأخذ يتحدث معها ومع زوجها ..
وشمل الحديث آخر ما ظهر من قطع الأثاث في السوق وقال ضاحكا :

— انى أدعوك لمشاهدة بيتى حتى تعرفى ذوقى ..

وحديد لها موعدا .. وكان يجادتها ويجانبها زوجها .. وكان
يشترك في الحديث وسمع الدعوة وسمع تحديد الموعد ..

وكان ينتظرها في بيته هي وزوجها وهو يخطط لتحديد موعد
آخر لها وحدها .. يجب أن يبدأ بريثا حتى يتأكد من أنه يستطيع
أن يخرج عن براءته ..

وإذا بها تأتي وحدها ..

وسأل في دهشة :

— أين زوجك ؟

وقالت ضاحكة :

— لقد فهمنا ان الدعوة لى وحدى .. ثم أنه لا يفهم في قطع

الأثاث ..

وأخذها ليبتها في فراشه .. أول امرأه يأخذها بعد مجولين ..
والفارق كبير .. ان المصرية تختلف في كل خلجة عن الانجليزية ..
وأشهى وألد ..

ولم يحس بحرج عندما التقى زوجها في مكتب الشركة في اليوم
التالى .. وكان الزوج هو الذى طلب مقابلته ليعرض موضوعا تافها

لم يتعود أن يعرض مثله .. ربما أصبح هذا الزوج صاحب حق عليه ..
وهو فعلا أصبح أكثر جرأة في التحدث اليه وان كان لم يشر بكلمة
من قريب أو بعيد تشير بأنه ترك زوجته تزوره في الليلة السابقة ..
لا يهم .. يجب أن يعود نفسه على التعامل مع هذه الشخصيات ..
مثل هؤلاء الأزواج ..

وقد تعود فعلا .. بل تراجمت علاقته ومغامراته كأنه دخل
عالمًا جديدًا كان خافيا عنه .. عالم التحرر من الحرمان .. وعرف
عنه أنه عين كثير من النساء والبنات في مكاتب الشركة .. كل من
عينها مرت به .. بل أنه أصبح خبيرًا في معاملات الزوجات في
المجتمع .. سواء المجتمع الراقى الذى أصبح يضمه أو المجتمع الشعبى
الذى لا يزال متصلا به .. أن له نظرة ثابتة يستطيع أن يفرق بها بين
الزوجة التى يمكن الوصول اليها فيحاول الوصول ، والزوجة لا يمكن
ان يصل اليها أحد فلا يحاول بل يحتفظ أمامها بالشخصية الهادئة
البريئة المتزمتة في الحفاظ على الشرف فيكسب تقديرها له ..

لاشك أنه أصبح متفوقا على برعى بك محمود في هذا
العالم الواسع ..

• • •

إلى أن فوجئ رفعت ذات صباح بخبر ثورة ٢٣ يولييه ..
لقد كان يعرف أن مصر في حالة غليان ولكن لم يكن ينتظر
مثل هذه الثورة ولا في هذا التاريخ .. كان كل ما ينتظره ثورة

شوارع تهدد الملك فاروق حتى يفيق لنفسه أو تطيح به وتضع مكانه ملكا آخر .. كما حدث في التاريخ القريب .. وهكذا كان يعتقد الانجليز وما كانوا يسعون إلى تحقيقه . بل أن هذه الثورة رغم أنها لم تكن مجرد ثورة شوارع قد بدأت بما كان يتصوره الانجليز .. عزلت فاروق ووضعت مكانه ابنته في رعاية مجلس وصاية ..

وكان يومها مختارا .. واتصل ببعض من يعرفهم ليتزود بالمعلومات ، ثم اتصل برعى بك محمود في نفس الصباح وقال وهو يضغط على صوته حتى لا يرتعش :

— هل علمت ..

وسمع صوت برعى يقول في فرحة وكأنه يزغرد :

— لم تكن مفاجاه .. سنتحدث فيما بعد ..

وآلى برعى بساعة التليفون في وجهه ، ورفعت يرياد حيرة :

ماذا يعنى برعى عندما قال أنها لم تكن مفاجاه ؟ !

هل كان يعرف عن هذه الثورة قبل أن تقوم ؟ !

هل كان الأمريكان يعرفون ؟ !

هل هى ثورة لحساب أمريكا ؟ !

(٥)

ظل رفعت اليومى حائرا في تحديد مفهومه للثورة وتحديد وضعه منها شهورا طويلة .. وكان أهم ما يشغله هو تحديد موقف أمريكا منها .. هل كانت أمريكا تعلم مقدما بهذه الثورة واشتركت في إعدادها بطرقها الخاصة .. ولم تكن أمريكا هى التى تهمة بل كان ما يهمة أولا هو صديقه اللدود برعى بك محمود رجل أمريكا في مصر .. ولو كانت أمريكا هى التى صنعت هذه الثورة فان برعى يصبح الحاكم بأمره ويستطيع أن يطيح به ويخرب بيته بهزه من أصبعه .. يستطيع أن يطرده كما تحاول أمريكا أن تطرد بريطانيا من مصر .. المعلومات التى تصل تؤكد أن برعى في حالة تقارب أوسع مع رجال الثورة .. بل انه سمع أنه ومنذ الأسابيع الأولى بدأ يعد لصفقة ضخمة لاستيراد القمح من أمريكا ولا يمكن أن تتم هذه الصفقة الا اذا كان

يعمل مع رجال الثورة واستطاع أن يطويعهم في جيبه .. لاشك أن أمريكا تؤيد هذه الثورة ..

ولكن المعلومات التي تصله لم تعد كافية .. ان المصادر التي كان يعتمد عليها أصبحت أعجز من أن تصل الى أعماق الأحداث .. الشبان الوطنيون الثوريون .. رجال الأحزاب .. رجال القصر .. كل هؤلاء لم تعد الدفة في يدهم .. دفة الحكم ودفة التصرف في مصر مصر .. رغم أنهم كانوا لا يزالون في أوائل الثورة محتفظين بقيمتهم وبوجودهم .. بل أن المعلومات التي كانت تصله لم تعد تثير أصدقاءه الانجليز عندما كان يقدمها لهم . حتى التفاصيل التي كان يحصل عليها عن تولى قيادة الثورة العمليات الثورية التي تقوم ضد القوات البريطانية المتمركزة على ضفة القناة .. حتى هذه التفاصيل التي كان يحصل عليها من المشتركين في هذه العمليات كان الانجليز يسمعونها في برود .. ليس جديد عليهم أن تقوم عمليات ثورية ضد قوات الاحتلال .. لقد تعودوا على مواجهة هذه العمليات منذ قبل الثورة ويعرفون كيف يخططون لمواجهة الثورة .. حتى لو كانت الهيئة الحاكمة أو الحكومة تؤيد الثورة ضدهم .. كل هذا ليس جديدا والحديد هو أن يعرفوا ما في داخل عقول رجال الثورة .. كيف يرسمون مستقبلهم ومستقبل مصر داخليا .. وما هي القوى الداخلية التي يعتمدون عليها .. ان الاحتلال من السهل عليه ان يواجه العمليات

الثورية الصريحة العلنية ، ولكن الصعب هو صد التحركات السرية قبل أن تبدأ وتمزيق القوى قبل ان تجتمع وتشكل ..

وكان يجب حتى يحتفظ بقيمته أن يسعى إلى الوصول إلى مصادر أوسع .. وليس هناك مصادر يمكن أن تمدد بما يريد الا مصادر ضباط الجيش الذين يسمون أنفسهم الضباط الأحرار خصوصا المقربين منهم الى مجلس قيادة الثورة .. أنهم وحدهم الذين يستطيع من خلالها أن يكتشف كيف تفكر الثورة وكيف تخطط .. وكان من بين مصادره منذ قبل الثورة بعض الضباط الشبان الثوار .. ولكنه في الواقع لم يكن اهتمامه عليهم .. لم يفد أن يكون من بينهم من يمكن أن تكون له قيمة في تحقيق ثورة إلى أن فوجيء بأحدهم بعد الثورة وهو يعمل في مكتب قائد الثورة .. انه البكباشي عبدالله عبد الصبور .. ولكن عبدالله أصبح صعب المنال .. لقد أرسل له أكثر من رسول لتحديد لقاء دون أن يلقاه .. انه معذور .. انه يبقى في مكتبه بمجلس القيادة طول النهار وطول الليل .. ومكاتب كل مجلس القيادة أصبحت تجمع بين المكتب الذي يعملون عليه والقراش الذي يلجأون اليه في لحظات لا يستطيعون فيها مقاومة النوم .. الى أن فوجيء بالبكباشي عبدالله عبد الصبور يزوره في مكتبه وبلا موعد .. ان عبدالله تغير .. انه ليس متواضعا صموتا كما عرفه قبل الثورة .. انه يتكلم في لهجة قوية كأنه يلقي أوامر .. وجاءه وهو مرتاد البذلة العسكرية بعد أن كان قد تعود ألا يزوره

الا وهو مرقد البذلة المدنية انخفاء لنفسه .. وقال عبدالله في هجة
سهلة صريحة :

— لقد جئت إليك لتساعدنا مع أصدقائك الانجليز ..

وهبت رفعت .. انها أول مرة يواجهه فيها أحد المسئولين
بصدافته للانجليز .. هل هو اتهام .. وقال وكلماته تتعثر :

— انهم أصدقاؤى لأنى أعمل معهم فى عمليات الاستيراد ..
صداقة عمل ..

وقال الضابط فى فتور :

— نعرف .. نحن نعرف كل شيء وواثقون أنك تستطيع
أن تعاوننا .. ولدينا معلومات كافية عن تخطيط السياسة الانجليزية
بالنسبة للجلاء عن القناة .. ولكنها معلومات من جانب واحد
ونريد معلومات من الجانب الآخر .. الجانب الانجليزى ..

وطال وطال الحديث وصورة ترسم فى عقل رفعت عن وضع
جديد بالنسبة له .. أن الثورة بصراحة تطلب منه أن يخدمها كما
يخدم الانجليز .. أى أن يكون عميلا مزدوجا .. عميل للثورة و عميل
للانجليز .. ولعلها لم تسع اليه الا وهى وافقه أنها الأقوى .. انها
تستطيع اعدامه بتهمة الخيانة مادامت تعلم أنه رجل الانجليز
ولكنها فضلت بدل اعدامه أن تستغل علاقته بالانجليز لصالحها ..
انهم أذكىاء ..

ولكن من يمثل الجانب الأول الذى يقول عبدالله أنهم يستقون
منه معلومات .. لعله برعى محمود .. لعلمهم اكتشفوا أيضاً علاقته
بالأمريكان فوضعه هو الآخر عميلا مزدوجا .. وان كانت العلاقة
بالأمريكان ليست فى خطورة علاقته بالانجليز .. ان أمريكا لا تحتل
مصر عسكريا ..

ومادامت الثورة قد واجهته بصراحة فيجب أن يستسلم .. لم
يعد من حقه الاختيار .. كان قد اختار الاعتماد الكلى على علاقته
بالانجليز لأنهم كانوا القوة الوحيدة فى مصر .. القوة التى تحكم
القصر الملكى وتحكم الأحزاب وتحكم كل ما فى مصر .. وربما كان
كل رجال السياسة يعرفون أياها علاقته بالانجليز ولكنهم لم
يكونوا يصارحونه بأنهم يعرفون خوفا من أن تحمل مصارحتهم
معنى الاتهام له فيخسرون الانجليز .. وكانوا يستسلمون له لأنهم
يستسلمون لقوة الانجليز .. القوة الوحيدة .. ولكن يبدو الآن
أن القوة الوحيدة لم تعد قوة الانجليز .. ان حكم الثورة يبدو
كأنه حكم مستقل بنفسه .. حكم يمثل قوة بجانب قوة الانجليز ..
ربما قوة الشعارات التى ثاروا بها ويمكن أن يستمروا بها حتى إلى
أن تفشل الثورة .. وربما قوة تعتمد على تأييد أمريكا .. المهم أنه لم
يعد يستطيع الاعتماد على قوة بريطانيا وحدها .. الا إذا كان غيبا فى
حين أنه أذكى الأذكىاء .. يجب أن يعتمد على كلا القوتين .. وبدأ
فعلا فى تقديم المعلومات إلى رجال الثورة عن طريق صديقه عبدالله

عبد الصبور .. وتقديم معلوماته للانجليز عن طريق صديقه مالموكوم ..
وان كان قد بدأ يقدر ويقيم المعلومات التي يقدمها هنا وهناك حتى
يحتفظ بثقة كلا الطرفين .. ليس كل ما يعرفه يقدمه .. ولكنه يقيم
بمخبر ص شديد ما يقدمه لرجال الثورة وما يقدمه للانجليز ..

وقد فهم في الشهور الاولى للثورة مالم تفهمه الأغلبية في مصر ..
لأنها أغلبية جاهلة حتى مستوى القادة .. فهم أن الانجليز يؤيدون
هذه الثورة .. بل ربما كانوا يعملون لمثلها .. فهي ثورة أطاحت
بالملك فاروق الذي كانوا قد فقدوا ثقتهم فيه إلى نهايتها .. ثم أنها
ثورة تؤكد أنها ستبقى محتفظة بنظام الحكم .. النظام الذي وضعه
الانجليز ويحرضون على استمراره .. نظام الديمقراطية الانجليزية ..
والثورة اعترفت بابن فاروق وليا للعهد .. وأقامت مجلس وصاية ..
ووعدت بعودة الأحزاب إلى الحكم بعد فترة انتقال لا بد منها ..
أي نفس نظام الحكم الذي يريده الانجليز .. بل أن رفعت تأكيد أن
الانجليز قرروا الجلاء العسكري عن منطقة القتال .. ولكن تكتيكهم
لا يزال التكتيك القديم المنقر .. ويماطلون ويمرقون ويتلاعبون
بالألفاظ .. عقلية جافة مترممة لا يمكن أن تتطور لتلحق بفن التكتيك
السياسي الجديد الذي ظهر بعد الحرب العالمية .. وهو ما فتح أمام
أمريكا مجالا واسعا للتدخل بين مصر وبريطانيا على اعتبار أنها
صديق للطرفين .. بل كأنها أصبحت شريكا كاملا في قضية الجلاء

البريطاني كما أصبحت بعد ذلك بسنوات طوال شريكا كاملا مع
مصر واسرائيل ..

وقد أصبح رفعت بيذل مجهودا أكبر في جمع المعلومات وهو
يحس أن المنافسة بينه وبين برعى محمود تشدد .. المنافسة بين بريطانيا
 وأمريكا .. وقد علم أن برعى يقيم اجتماعات سرية بين رجال
الثورة والشخصيات الأمريكية التي تتولى القيادة في السفارة
الأمريكية .. وقد تعد أن بعد مثل هذه الاجتماعات السرية ، وجمع
بين صديقه مالموكوم وعبدالله عبد الصبور مدير مكتب القائد ..
ويذكر أنه يومها حاول أن يترك الاثنين وحدهما كأنه يريد أن يقول
لها أن لا تدخل له في الأسرار .. لولا أن قال له عبدالله في طبعته
الأمرة الجديدة :

— أجلس بارفعت بك .. أنك لست غريبا ولم نتعود أن نخفي
عنك شيئا ..

إلى أن تطورت الأحداث ووجد رفعت نفسه في حاجة إلى
مزيد من الذكاء ..

لقد بدأ الخلاف داخل حكم الثورة بين محمد نجيب وجمال
عبد الناصر .. واكتشف رفعت بسرعة أن الانجليز يؤيدون محمد
نجيب بينما الأمريكان يؤيدون جمال عبد الناصر ..

لماذا ؟

ما الفرق بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر بالنسبة للانجليز
والأمريكان ؟!

ربما كان الانجليز يعتبرون محمد نجيب أكثر اقتناعا واثقانا
وتمسكا بنظام الحكم القديم .. نظام الديمقراطية الانجليزية .. لأنه
عجوز .. والانجليز حريصون على استمرار هذا النظام ... بينما
الأمريكان يعتبرون عبدالناصر ذو عقلية ثائرة على كل آثار الانجليز
بما فيها نظام الحكم ويمكن أن يقلب كل ما في مصر إلى جديد ..
وأمريكا وهي تقيم الامبراطورية الجديدة تريد كل شيء جديد ..

ورفعت يركز كل ذكائه في اختيار موقعه بين محمد نجيب
وعبدالناصر .. وهو رغم ارتباطه بالانجليز فيجب أن يحسب حساب
مستقبله .. وهو في تقديره لا يستطيع أن يتجاهل قوة عبدالناصر
رغم الشعبية التي كان محمد نجيب قد حصل عليها .. ثم أن حلقة
الاتصال بينه وبين الثورة أي عبدالله عبدالصبور من رجال
عبدالناصر ..

وبدأ يجتاز فترة حرجة من عمره .. لقد كان حريصا على أن
يعرف رجال جبهة عبدالناصر أنه منهم وفي الوقت نفسه يحاول أن
لا ينحسر جبهة محمد نجيب .. بل أنه كان يعتمد أن ينقل أخبار جبهة
عبدالناصر إلى جبهة محمد نجيب وأخبار جبهة محمد نجيب إلى جبهة
عبدالناصر معتمدا على أسلوبه وتكتيكه في نقل الأخبار بحيث
لا ينحسر هذه الجبهة أو تلك .. أخبار ينقلها كأنها مجرد كلام ..

إلى أن انفرد عبدالناصر بحكم الثورة ..

ان الانجليز أغبياء في كل تقديراتهم .. غباء العواجز الذين
أصبحوا عاجزين عن التطور ..

وكان الجلاء قد تم في هذه الفترة .. ورغم أنه تم وفقا لكل
ماطلبه الانجليز .. ورغم أنه لولا صداقتهم وتأثيرهم على محمد نجيب
لم يوقع على معاهدة الجلاء وتركها لعبدالناصر يتصرف كما يريد
فقد كان رافضا لشروط المعاهدة .. إلا أن الأسلوب الانجليزي
القديم جعل الجلاء يبدو كأنه تم رغم أنهم وأن الفضل في تحقيقه
للأمريكان ..

لاشك أن برعي محمود أصبح أقوى بعد الجلاء .. لقد أصبحت
أمريكا هي الأقوى .. وبدأ رفعت يحس أن قيمته لدى رجال
الثورة تنهار .. وقد بلغ من حقه على برعي محمود وغيفله منه أنه
وجد نفسه يجمع كل ما يصل اليه من معلومات ويقدمها إلى صديقه
الانجليزي مالوكولم .. وصديقه يستمع في فتور وعلى شفثيه
ابتسامة كأنها ابتسامة اشتاق كأنه يعلم سر المنافسة العنيفة بينه وبين
برعي .. المنافسة في حيازة الحكام إلى كل منهم .. إلى أن
قال له مالوكولم مرة :

— أنا نعرف أن برعي محمود صديق للأمريكان .. ونعرف
أنهم يعتمدون عليه إلى حد كبير .. ويقال أنه فعلا في منتهى النشاط

وموهوب بالقادرة على خدمة الأصدقاء .. ولا يهمننا أن نعرف عنه
أكثر مما نعرفه .. بل أنه لو قدم إلى الأصدقاء معلومات تهمننا فهي
تصل إلينا عن طريق الأصدقاء .. أنت تعلم أننا حلفاء ..

وبنت رفعت وكأنه أفاق ..

صحيح .. ماذا يهم السفارة البريطانية من أخبار برعى .. وما قيمته
بالنسبة لهم وماذا يريد منهم بإبلاغهم أخباره .. هل ينظر أن يطرده
أو يتخلوا عن ثقته فيه .. أنه ليس تابعاً لهم .. أنه تابع لأمريكا ..
وكان يجب أن يقدر أنه رغم كل التنافس السياسي بين بريطانيا
وأمريكا فإن التحالف قائم ويفرض عليها أن يتبادلوا المعلومات
الطامة .. المعلومات التي يقدمها هو إلى بريطانيا تصل إلى أمريكا ،
والمعلومات التي يقدمها برعى إلى أمريكا تصل إلى بريطانيا .. أنها
أصول التعامل الدولي بين الحلفاء ..

وشعر أن ذكاؤه قد خانه واندفع في تقديم معلومات عن
برعى .. كان يجب أن يبدو متعالياً لاهمه برعى وفاعها لكل
ما يتطلبه التعامل الدولي .. وكف عن تقديم معلومات أو أخبار عن
برعى للسفارة البريطانية .. ورغم ذلك فقد كان يتمنى أن يصل إلى
معلومات عنه يقدمها لرجال الثورة لا للسفارة .. أنه لو استطاع أن
يبدد الواقعة بين برعى والثورة لاستراح منه وأصبح هو وحده
القوة التي تحتاج إليها الثورة .. هذا النوع من القوة ..

أنه لن يستسلم أبداً للانهيار .. لن ينزوي ولن يكف عن
المحاولة ..

إلى أن حدث الاعتداء الثلاثي ..

لقد أصبح برعى محمود هو كل شيء فصر تريد أمريكا
لتنقذها من هذا الاعتداء .. ووصل الاحتياج إلى برعى إلى حد أنه
كان يرسل في مهمات رسمية في الخارج أثناء فترة الاعتداء .. مهمات
يتكلم فيها باسم قيادة الثورة وإن كان يسافر باسم أنه من رجال
الأعمال ..

وتحقق الأمل ..

وانسحب المعتدون .. انتصر قادة الثورة على بريطانيا وفرنسا
واسرائيل .. وربما كان برعى محمود يضحك بينه وبين نفسه
ساخرًا .. أنه هو الذي انتصر .. هو .. أمريكا ..

وأصبح رفعت البيومي كأنه لم يعد شيئاً .. رغم أنه حاول أن
يقدم الخدمات في أيام هذا الاعتداء وكان يعتمد أن يبدو ضد
الإنجليز ويكشف عن أسرار يحاول أن يقنع بها القادة بأنها أسرار
كفيلة بأن تطرد الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين من مصر ..
ولا شك أنه أبلغ القيادة عن الاعتداء قبل أن يقع .. كان كلما
اتصل بالوكولم بعد إعلان قرار تأميم القناة سمع منه قوله .. لن
نسكت على هذا .. لا يمكن أن نترك قناة السويس تؤمم .. أتى أعلم
أن هناك عملية كبيرة ستحدث .. وكان بالوكولم يقول له هذا

الكلام في غيظ وحقد وحده كأنه هو شخصيا أعلن الحرب على مصر .. ولم يقل له مالوكولم أن الاعتداء سيقع ولا شيئاً من أسرار تفاصيل هذا الاعتداء .. ولكنه كان ينقل كلماته إلى القيادة وكانت كلمات تكفي لتقدير أن الاعتداء سيقع .. وإن كان لم ينس مسئولية نجاح الانجليز .. لقد أبلغهم بالتفكير في تأمين قناة السويس قبلها بشهور .. ولكنهم أغنياء تكاسلوا في تفكيرهم حتى لم يجدوا رداً على التأمين إلا هذا الاعتداء ..

...

وكان رفعت البيومي يستعرض ذكرياته وهو جالس في استرخاء على الأريكة العريضة وأمامه كأس فارغ وبين أصابعه سيجار لا يرفعه إلى شفثيه .. عندما وصلت زوجته آمال وهي منتصبة في خطواتها برشاقة هادئة وبين شفثيها ابتسامة حلوة حنوته تظل من عينيها الجادتين .. إنها ست البيت التي تحمل المسئولية كاملة .. مسئولية راحة البيت وراحة زوجها .. وقالت في طبعه تجمع بين حب الزوجة ومسئولية المشرقة العامة على هذه الناحية من حياة الزوج :

— تأخرت كثيراً عن النوم ..

وقال رفعت ضاحكاً وهو يضربها بعينيه :

— أحسن كأنى نائم وأحلم .. نائم مع ذكرياتي ..

وقالت وهي تضحك ضحكها الرصينة الجليظة :

— عودتي ألا تنام بعيداً عني .. لا يأخذك منى شيء حتى ولا ذكرياتك .. قم .. تأخرت كثيراً عن موعد النوم ..

وقال من خلال ابتسامته :

— سألتك بك ..

وقالت من خلال ابتسامتها :

— لم أتم في انتظارك .. وأريد أن أنام .. لا تتأخر ..

وتركته مبتعدة إلى داخل البيت وهو يتبعها بعينيه ويريق من الزهور والغرور يعاوده .. أن آمال تمثل وحدها مرحلة ناجحة من مراحل حياته .. كان بعد الثورة قد بدأ يقتنع بأن حياته الخاصة التي يحياها لم تعد تصلح لتحقيق أهدافه في هذا المجتمع الجديد الذي بدأ يقترض وجوده .. حياة الرجل الأعزب المعروف بمغامراته النسائية .. والتي تنسج لتقديم خدمات نسائية وليالي ماجة للأصدقاء وصحيح أن قصص العلاقات النسائية لا تزال منتشرة بعد الثورة وظهر فيها نوع جديد من القصص عن مغامرات الضباط مع نساء العائلة المالكة والطبقة الراقية القديمة .. ولكن هذه القصص لم تعد وافعا مقبولا ومعترفا به اجتماعيا .. على الأقل من ناحية المظهر .. مظهر الفسق .. وإن كان الفسق لا يزال يعيش داخل السرايب .. وليس قائد الثورة شخصية تعيش ملذاتها الخاصة .. تقامر مع

النساء أو تلعب القمار أو تقيم الليالي الصاخبة .. وتجعل من هذه
الملذات واقعا اجتماعيا من حق كل الناس أن تعيش فيه .. كما كان
الحال أيام الملك فاروق .. وكل قادة الثورة من الطبقة الوسطى التي
لا تزال تؤمن في تزم بمبادئ التقاليد الشرعية .. وتحكم على
الرجل بحياته الخاصة الظاهرة .. أي إذا أراد امرأه فليتزوج .. وإذا
كانت هناك امرأة لم يتزوجها فليخفيها في قاع حياته بحيث لا يعرف
بها أو تعرف به ..

أي أنه يجب أن يتزوج حتى يعيش هذا المجتمع الجديد الذي
يعيشه القادة .. يجب أن يتزوج لا لأنه في حاجه إلى الزواج ولسكنه
في حاجة إلى التعامل مع هؤلاء القادة والحكام الجدد ..

ولكن كيف يتزوج .. ومن يتزوج .. أنه لا يمكن أن يتزوج
امرأة مرت على فراشه منها كانت قبضها الاجتماعية .. وقد مرت
على فراشه بنات ونساء كثيرات من الطبقة الراقية .. طبقة الحكام ..
هذه بنت فلان وهذه زوجة علان .. وكانت كل منهن ترضى
غروره .. كان لا يكتفى بالاحساس بأنه يأخذها بل كانت متعته
الكبرى هو احساسه بأنه يأخذ أبها أو يأخذ زوجها .. ينهكها في
فراشه .. ولم يفكر أبدا في الزواج من احدها .. وان كانت قد
مرت به قصصا أضطر فيها أن يكذب وأن يخدع .. ربما لأن أصله
لا يزال يرسب في أعماقه ويتحكم في شخصيته .. أصله كابن فلاح
من كفر البطيخ .. ليس بين رجال كفر البطيخ رجل يرضى أن

يتزوج امرأة يستطيع أن يأخذها إلى فراشه بلا زواج .. وربما
لذلك تردد في الزواج من مجذولين ابنة وكيل بنك باركلز ورغم
أن مصالحة كانت تلح عليه أيامها ليتزوجها .. ولعل البنات والنساء
اللاتي مررن بفراشه لم تفكر احدها أن تسعى للزواج به .. كانت
كل منهن تقبل به كأنها مقدمة على لعبة مغرية تجربها .. لعبة مع رجل
ناجح ثري مشهور .. لعبة قد تخرج منها هدية ثمينة .. أو بتوظيف
واحد من أهلها لدى شركة من الشركات .. أو بمجرد التمتع
بالفرجة على اللعبة كما تنفرج على فيلم سينائي من الأفلام الممنوعة ..
لذلك فليس في حياته كلها قصة حب .. أنه لا يعرف الحب بل
لا يعترف بأن ما يسمى بالحب .. هناك عمل .. عمل فقط .. وما كان
يجري على فراشه كان مجرد عمل .. عمل لذينة ..

إلى أن التقي بآمال ..

والغريب أنه التقي بها لأول مرة عند برعى محمود .. كان يقيم
حفلا رسميا بمناسبة افتتاح شركة جديدة لاقامة مزارع انتاج الفراخ
والبيض .. شركة تساهم فيها أمريكا طبعاً .. وكانت آمال بين
المدعوين .. جاءت مع أبها .. وشدت عيني رفعت .. أنها ليست
في مشي الجمال .. وليس هذا النوع من الجمال الذي يثير شهوة الرجل
ويجعله يحملها بخياله إلى فراشه .. ربما شد عينه إليها شخصيتها الجادة
الحترمة التي تبدو بها حتى من بعيد وهي واقفة بين صديقاتها
المتجمعات في الحفل .. ووجد نفسه يقترب إليها عندما أحاط بها

بعض أصدقائه من المدعوين .. وكان أول ما لاحظته عنها أنها كثيرة الأسئلة .. وكلها أسئلة خاصة بتفاصيل الشركة التي يحتفل بافتتاحها .. وكلها أسئلة علمية كأنها تحاول أن تدرس وتفهم .. ولكنها لم تكن تلح في أسئلتها إنما فقط كانت كأنها تختار موضوع الحديث الذي يجمعها مع هؤلاء الرجال .. وقد احتد الحديث حتى قال لها أنه هو شخصيا بدأ في مشروع استيراد الأقشة والمنسوجات من بريطانيا ويهمنه أن تشاهد أنواع من هذه الأقشة حتى تقول رأيها فيها ، وقال ضاحكا :

— ان الشابات الصغيرات أقدر على الحكم على مستقبل البضائع من السيدات ..

وقالت من خلال ابتسامتها المحترمة :

— أنا لست صغيرة .. وأرحب بأن أرى البضائع التي تقول عنها ..

واستطاع أن يحدد معها موعدا لزوره في الشركة ..

وبسرعة جمع كل ما يستطيع أن يعرفه عنها .. أنها فوق العشرين وكانت طالبة في مدرسة البنات الأمريكية ثم أصبحت الآن طالبة في الجامعة الأمريكية .. وهي من عائلة كبيرة محترمة .. ليست من عائلات الطبقة التي كانت معروفة قبل الثورة ولا من العائلات التي عرفت بعد الثورة .. ليس في عائلتها أحد من الضباط الأحرار ..

ولكنها عائلة من هذا النوع من العائلات القديمة التي تحافظ على احترامها لنفسها .. أنهم يملكون خمسمائة فدانا حول شين الكوم .. ثم أنها ليست معروفة بشيء إلا بنشاطها داخل بعض الجمعيات النسائية ..

ولكن ما علاقتها ببرعى بك محمود وقد التقى بها عنده !؟

لا علاقة .. وليست موظفة عنده أو تعمل معه .. أنه يكاد لا يعرفها .. لقد كانت في الحقل بصحبة والدها .. وهو يعرف والدها الدكتور مصطفى فهم .. أنه دكتوراه في الزراعة ويعمل مستشارا لبعض الدور الزراعية .. لا يمكن أن يكون والدها مشتركا مع برعى محمود في علاقته بأمرىكا ..

وقد جاءت إليه في الموعد المحدد .. وقد أحس منذ اليوم الأول أن الحديث بينهما لا يمكن أن ينتهي .. وقد تكررت اللقاءات وهي مقبلة عليها دون أن يكون لديها أهداف من وراء هذه اللقاءات .. بكنى أن تدرس وتفهم ولا شك أنها تستريح إلى لقائه .. وقد حاول معها وهي من الذكاء بحيث تفهم ما يحاوله ولا تصده بغضب ولا تعطيه بل تصده وهي تكتسب مزيدا من احترامه .. وقد عرض عليها كما تعود أن يعرض على كل الفتيات اللاتي يردن أن تعمل في شركته .. مشرفه على اختيار الأقشة والمنسوجات المستوردة .. ولكن لا .. أنها تفضل التفرغ لدراستها في الجامعة الأمريكية إلى أن تنتهي منها ..

إلى أن جاء اليوم عندما قال لها وبين شفثيه الرفيعتين ابتسامة
جادة :

— هل تعرفين ما ينقصني في حياتي وفي عملي ؟

قالت في بساطة :

— ماذا ؟

قال وهو يلقيها بكل عينيه :

— الزواج ..

وردت ضاحكة :

— تزوج حالا ..

وقال وهو يقبل بكل وجهه اليها :

— هل تقبليني زوجا ..

وسكنت طويلا ولكن دون أن تبدو كأنها فوجئت أو ذهلت

بهذا العرض أو كأنها كانت تنتظره، أو لعلها تقرضه في كل رجل
يطول اللقاء بينها وبينه .. أنها واثقة من نفسها .. وقامت منصرفة
وهي تبسم في خضر قائلة :

— سألتك عندما تزور بابا ..

ولم يكن أبوها مهلا .. أنه دقة قديعة يهجم الأصل والنصل ..

ورفعت

أنه ابن فلاح من كفر البطيخ هـ وهو لم يحصل على شهادة
جامعية .. ثم أن الكلام حوله بين رجال الأعمال كثير ليس كله
كلاما مشرفا .. ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر ماوصل اليه
رفعت .. لقد أصبح ثاني أو ثالث رجل أعمال معروف في مصر ..
وعائلته ارتفعت إلى أرقى المستويات .. لقد سعى لأخوته حتى أصبح
كل منهم في مركز محترم بعد أن أتم تعليمه الجامعي .. وتدخل
بنفسه في زواج اخوته البنات واختار لكل منهم زوجا محترما
مشرفا .. وهو الآن يستطيع أن يشتري كل أراضي كفر البطيخ
ويصبح الرجل المسيطر عليها كباشوات أيام زمان ولكنه لا يريد
كفر البطيخ .. أنه يتجاهلها كأنه يشطبها من أصله وفصله .. المهم ..
ان آمال هي التي أصرت على الزواج به .. ليس لأنها تحبه هذا
النوع من الحب ولكن لأنها مقتنعة به .. حب اقتناع .. وآمال
تعتمد على عقلها أكثر مما تعتمد على عواطفها ..

وهو يذكر أول مرة لمست فيها شفثيه شفثي آمال بعد اعلان
الخطوبة .. كان نوعا من القبل جديدا عليه .. قبل هادئة حاملة
تادوم متعتها فترة طويلة قبل أن تنتشر متعتها في باقي الجسد ..

وقد أنتقل من شفثيه في جاردن سيني إلى هذه الشقة الرائعة
الفخمة المظلة على النيل وان كان لا يزال محتفظا بشقة جاردن
سيني .. أنه يتفاد ويتبارك بها ولا يزال في حاجة اليها في بعض
اللقاءات الخاصة .. وهو يذكر الحفل الذي أقامه في الشقة الجديدة ..

حفل الزواج .. لقد دعا اليه كل الشخصيات التي يعرفها وبينهم
كثير من رجال الثورة والضباط الأحرار .. وذكر أنه خيل اليه
ليتها أن يرعى محمود كان ينظر إلى العروس آمال وهو يصافحها
كأنه يشفق عليها ويرثي لحالها .. وعندما صافحه كان ينظر اليه كأنه
يلومه على اغتصاب هذه العروس ..

ولكن الزواج نجح وحقق كل أمانيه ..

لم ينجح بسهولة فقد عانى منذ الأيام الأولى كثرة أسئلة آمال ..
أنها تريد أن تعرف وتفهم كل شيء عن خصائص عمله بل وخصائص
كل حياته .. لا يمكن .. أنها لن تعرف أبدا شيئا عن صداقته
بالإنجليز .. أنها لا تعرف شيئا حتى اليوم .. هذا ما يجب أن يراعيه
عميل مثله .. لا يعرف أحد عنه شيئا حتى ولو كان من أهله .. وآمال
عاقله .. قوية على نفسها .. فكفت عن السؤال واقتنعت نفسها بأن
يكون العمل له وحده وهي لها البيت والمجتمع .. بل أنه استطاع
أيضا أن يفرض فوقه على آمال .. أصبحت هي الأخرى خاضعة
للذوق الإنجليزي في كل ما يختاره ليبتها وفي كل ما تضعه من نظم
الحياة .. احترمت شاي الساعة الخامسة .. واقتنعت بنظام البنلر ..
بل أنها كانت تسافر مع رفعت إلى لندن وتلتقي هناك بمجدولين
وتطوف معها لشراء الذوق الإنجليزي .. لقد قال لها رفعت أن
مجدولين كانت تذوب فيه صباية .. لا يهم .. لم يتحرك في آمال
شيء يغار على زوجها من ماضيه ..

أن زواجه من آمال حقق له كل ما يريد له لنفسه ولعمله .. أنه
يزهو ضد ما يرى الذين يعرفهم بحسبونه عليها .. وربما يحترمونها
أكثر مما يحترمونه .. وهو الاحترام الذي كان يجذب كثيرا من
قادة الثورة اليه لزيارته .. وأكثر من ذلك .. أن آمال استطاعت
أن تجعل من أولادها الأربعة أولادا ليس فيهم شيئا من أصله
وفصله .. وليس فيهم ما يؤثر عليهم من شخصية أبيهم .. أنهم
كأولاد الأصول .. ليسوا من نسل فلاح من كفر البطيخ ولا أبناء
عميل بريطاني ..

...

وقام رفعت لينام وذكرياته لا تزال معه كلها ..

أنه أخذ آمال من مجتمع برعى بك محمود وحقق بها منتهى
النجاح .. وقد حاول في فترة مضت أن يأخذ منه شيئا آخر .. شيئا
يغتنبه منه أو يشاركه فيه .. حاول أن يأخذ أمريكا ..

لماذا لا يكون هو الآخر من رجال أمريكا في مصر ..

وليس معنى ذلك أنه خطر على باله أن يتخلى عن بريطانيا ..
أبدا .. أن بريطانيا هي بريطانيا منها حل بها .. وقد كانت الصديقة
الأولى التي فتحت أمامه كل هذا النجاح الذي حققه .. وسبق
الصديقة دائما .. وكانت العلاقات أيامها وبعد الاعتداء قد قطعت ..
أقفلت السفارة واحتجى صديقه مالوكوم .. ولكنه كلف بصداقة

بيرز السكرتير الأول بالسفارة السويسرية ليتلقى منه معلوماته
ويتولى بيرز إرسالها إلى لندن .. إن لندن لا تستطيع أن تتخلى عنه
وعن خدماته ..

ولكنه كان يتمنى أن يصل إلى صداقة أمريكا أيضاً ..

لماذا لا ..

أنه لو جمع بين بريطانيا وأمريكا في شخصه لأصبح أقوى
رجل في مصر ..

(٦)

كان رفعت البيومي يبذل كل جهده وكل ذكائه في التقرب
إلى الشخصيات الأمريكية التي تقيم في مصر أو تمر بها .. سواء
شخصيات العاملين في السفارة أم شخصيات رجال الأعمال
الزائرين .. أنه يريد أن يأخذ أمريكا من برعى محمود أو على الأقل
بشاركه فيها .. ولكنه اكتشف أن الأمريكان رغم البساطة التي
تبدو عليهم ورغم الضحكات والابتسامات التي لا تكف عن شفاههم
والنظرات البريئة الساذجة في عيونهم ليسوا من الشخصيات السهلة
ووراء مظهرهم البسيط عقليات حريصة معقدة لا تدري كيف
تفكر وإلى أين تتجه ..

وكان قد استغل اتصالاته الواسعة بحيث يكون موجودا في كل
حفلي كبير أو صغير أو حفل عام أو خاص يجمع أي شخصية

أمريكية لها قيسها .. وكان أى أمريكى يرحب بلقائه ويتلقى معرفته
باحترام كبير .. ربما لأنه أصبح شخصية معروفة مشهورة .. احدى
الشخصيات البارزة بين رجال الأعمال بصرف النظر عما تعرفه عنه
بعض الأوساط من أنه صديق الانجليز الأول فى مصر .. ربما لهذا
كانوا يرحبون ويحترمون لقاءه .. ولكنه كان دائماً لقاء له الطابع
الرسمى العادى .. انهم لا يحاولون اكتسابه كما يحاول اكتسابهم ..
لا يجرون وراءه كما يجرى وراءهم .. رغم أنه كان فى كل مناسبة
يحاول أن يثير اهتمامهم بأن لديه معلومات كثيرة خطيرة .. معلومات
قد لا يستطيع برعى محمود أن يحصل عليها .. ولكن لم يحاول أحد
منهم أن يجرى وراء هذه المعلومات .. ويذكر مرة أنه التقى بمستر
وليم بورنو مستشار السفارة الأمريكية .. انه يعلم عنه أنه ليس
مستشار السفارة .. أنه ممثل المخابرات الأمريكية فى مصر .. أو
ولم تكن أول مرة يلتقى به فيها فى حفل استقبال عام ولكنه أراد فى
هذه المرة أن يكون أجراً اقداً وأكثراً صراحة فقال له فى لهجة
طبيعية ومن خلال ابتسامته كما تفرض الأصول الدبلوماسية :

— أعتقد أن لدى موضوعات هامة يستحسن أن نناقشها معا ..

هل تقبل دعوتى إلى تناول الشاي ؟

وقال ولیم وهو يرد الابتسامة بابتسامة أوسع منها :

— أرحب ..

ولكنه كان فاتراً فى تحديد موعد هذا اللقاء .. لم يتم اللقاء الا
بعد حوالى أسبوع أو عشرة أيام .. وقد استقبله فى بيته الجديد المطل
على النيل والمؤسس بالذوق الانجليزى .. ولم يكن متحفظاً فى
استقباله فاستقبال الأمريكان لا يثير نفس الضجة التى كان يثيرها
استقبال الانجليز .. ثم انه كان قد أبلغ صديقه البكباشى عبد الله
عبد الصبور ممثل مجلس قيادة الثورة بخبر هذه الزيارة قبل مواعدها ..
انه مطمئن ..

وقد خطط فى لقاءه مع المستشار الأمريكى أن ينتقل إليه
معلومات يعتقد أنها معلومات خطيرة حتى يكتسب حاجته إليه ..
وقال له بعد أن ملأ عليه بنظرة تنطلق بالخوف من الخطأ :

— انى متأكد أن مصر تسير فى اتجاه جديد .. والعنصر الأمامى
فى هذا الاتجاه هو الصداقة أو الاتصالات السرية التى بدأت بين
عبد الناصر من جهة ونهرو الهندى وتيتو اليوغوسلافى من الجهة
الأخرى ..

ولم يفاجأ ولیم بهذا الخبر الخطير وقال فى بساطة :

— نحن نعرف ..

وقال رفعت فى غيظ :

— لا يمكن أن تكونوا قد عرفتم كل شىء ووصلتكم كل
التفاصيل ..

وأخذ بروي تفاصيل كثيرة .. بعضها وصلته فعلا عن طريق مصادره وبعضها ابتكرها بحياله السياسي الذي يثق أنه دائما خيال واقعي .. ولكن ولم مستمر في بروده وبهر رأسه بين الحين والحين مرددا :

— نحن نعرف ..

وانتهت الزيارة بسرعة وانصرف ولیم وهو حريص على كل المظاهر الرسمية .. مظاهر الصداقة الكاذبة والاحترام الكاذب .. لماذا يتعامل الأمريكيان بهذا البرود والفتور .. هل هم مكثفين بصداقة برعي محمود إلى حد أنهم لا يشعرون بحاجتهم إلى أي صديق آخر .. ولكن الدول لا تعتمد أبدا على صديق واحد .. ربما كان السبب هو أنهم يعرفون أنه صديق للانجليز ويمدهم منذ زمن طويل بكل ما لديه من معلومات .. حتى المعلومات التي كان قد أبلغها لويلم خلال زيارته كان قد سبق أن أبلغها للانجليز عن طريق صديقه الجديد بيرتر سكرتير أول السفارة السويسرية .. وهو يعرف أن مركز المخابرات البريطانية على اتصال بمركز المخابرات الأمريكية ويتبادلان المعلومات التي تهم كل منهما .. إن الأمريكيان يتلقون معلومات عن طريق الانجليز ولا حاجة لهم لاقامة اتصال مباشر بهم .. ليسوا في حاجة إلى الارتباط به ويكفي ارتباطه بالانجليز ..

ورغم كل هذه الحواطر التي تلح عليه باليأس من الأمريكيان .. إلا أنه لا يكف عن المحاولة .. وقد قرر أن يجرب خطوة أخرى

يحاول بها أن يزوج بشخصيته بين الأمريكيان .. لقد أصبح لديه الآن كثير من الأمريكيان إن لم يكونوا أصدقاء فهم معارف .. ويريد أن يجرب قيمته ومدى هذه المعرفة .. فتقدم بصفقة تربطه بأمريكا .. صفقة صغيرة لا تخرج عن استيراد كاولتشوك للسيارات .. إن العمليات التجارية تساعد على فتح الأبواب أمام العمليات السياسية .. ورغم كل الاتصالات التي قام بها مع معارفه الأمريكيان فإن الصفقة ظلت تسير في الروتين العادي كأى صفقة يقوم بها أى مستورد عادي .. ليس له لدى الأمريكيان قيمة خاصة أو مركزا خاصا .. لأن تكون صفقة بالنسبة له .. إنما مجرد عملية تجارية عادية لن يكسب منها المكسب الضخم الذي تعودده لابلصفته من رجال الأعمال بل بصفته صديق .. صفقة ليست كالصفقات التي يعقدها مع الانجليز .. أنه حتى اليوم يكنى أن يرسل برقية واحدة إلى لندن فتتم الصفقة وتصل البضاعة كأنها هدية .. كأنها أتعاب يستحقها للجهد الذي يبذله تأكيداً لصداقته ..

وفي هذه الأثناء كانت الأزمة تشتد بين قيادة الثورة وواشنطن .. أزمة حاجة مصر إلى السلاح الأمريكي .. ولاشك أن برعي محمود رجل أمريكا الأول يتحصل العبيء الأكبر في حل هذه الأزمة .. أنه يلتقي كل يوم بالقيادات كأنه أصبح عضوا في مجلس القيادة .. ولكن صفقة الأسلحة التي حاول برعي أن يحققها بين مصر وأمريكا قبل الثورة وأفسدها عليه لم تعد تصلح بعد الثورة .. إن الثورة تريد

أنواعا من الأسلحة لا يمكن أن تعطى لها أمريكا حرصا على مسئوليتها
عن إسرائيل .. وبرعى لا يمكن أن يؤثر في موقف أمريكا من
إسرائيل ..

وخلال اشتداد هذه الأزمة وصلت إلى رفعت معلومات أنه
جاء إلى مصر مستر مايكل ستيوارت .. أنه أحد الشخصيات
الرئيسية الهامة في المخابرات الأمريكية وقد جاء بصفة غير رسمية ..
جاء كمجرد سائح لينفجج على الأهرامات وأبو الهول .. ولكنه
قطعا جاء لينشئ أسرار أزمة السلاح .. وربما ليدرس احتمالات
قيام انقلاب في مصر يريخهم من عناد وغرور عبدالناصر .. وآه لو
استطاع رفعت أن يقابله .. لعلمه من خلاله يستطيع أن يكسب
أمريكا كلها .. وقام باتصالات سريعة استطاع بها أن يقابل مايكل
ستيوارت ..

انه شخصية تتميز عن الشخصيات الأخرى التي سبق أن
قابلها .. انه يستمع للمعلومات بطريقة تدفع إلى إعطائه مزيدا من
المعلومات .. وهو يسأل كثيرا حتى عن التفاصيل الدقيقة الثافية ..
واستراح له رفعت .. أحس كأن أمريكا بدأت تعرف به كشخصية
هامة تحتاج إلى صداقتها .. إلى أن قال له رفعت متأديا في تقديم
خدماته :

— انى مستعد أن أدبر لك لقاء مع أحد الضباط القريبين من
مجلس قيادة الثورة .. وأنصحك أن تقدم على هذا اللقاء ..

وقال مايكل مرحبا :

— أرجوك .. انها خدمة لا أنساها ..

ودبر له رفعت لقاء مع صديقه عبدالله عبدالصبور .. ولم
يشترك رفعت في هذا اللقاء .. لم يدعه صديقه عبدالله للاشتراك
فيه .. ولكنه عرف التفاصيل .. انه لقاء أستمير ساعتين ثم قام
عبدالله وصحب مايكل للقاء عبدالناصر ذاته .. واستمر اللقاء
بعبدالناصر أكثر من ساعة .. وطبعاً لم ينته اللقاء على الوصول إلى
حل الأزمة ولكنه انتهى إلى إثارة أمل كبير في حلها .. قد تقبل
أمريكا امداد مصر بالسلاح .. والفضل لرفعت .. أنه هو الذي دبر
الخطوة التي فتحت الطريق .. وقد اتصل به مايكل ستيوارت في
التليفون قبل سفره عائدا إلى وطنه ليشكره .. وسأله رفعت من
خلال فرحته وغروره بذكائه كيف يستطيع أن يتصل به في
واشنطن .. وأعطاه مايكل وسيلة الاتصال به وان كان رفعت قد
كشف وهو يسجلها أنها وسيلة لا توفر الاتصال بمايكل شخصيا
ولكن الاتصال بمكتب يستطيع أن يصل اليه من خلاله .. لا يهم ..
ان الادارة الأمريكية معقدة بالروتين حتى في مثل هذه الاتصالات ..

ولم يمض يومان وكان رفعت مدعوا إلى حفل دخل اليه وهو
مزهوا بينه وبين نفسه بعفريته وذكائه بعد ما حققه من انتصار في
تحقيق اكتساب صداقة أمريكا .. ورأى في الحفل برعى محمود ولم
ينالك احساسه بالشهانة فيه .. لقد حقق أكبر نصر بتدبير لقاء

سريا بين عبدالناصر وأمريكا .. وربما أطلقت هذه الشائعة من عينيه
فاقترب منه برعى محمود وصافحه في حرارة وشدة بعيدا عن
الناس وقال له من خلال ابتسامة تبدو كأنه كنيشيه باهت بين
شفتيه :

— أنى معجب بك وبنشاطك .. استمر فى هذا النشاط ..

وقال رفعت وهو يحاول أن يبدو متعاليا :

— أى نشاط ؟

وقال برعى من تحت كنيشيه ابتسامته :

— نشاطك مع مايكل ستوارت وتدير لقاء مع عبدالله
عبدالصبور الذى أتى بلقاء عبدالناصر ..

وابتلع رفعت ريقه كأنه يتلع صدمة وقال فى صوت
مرتعش :

— ان كل منا يقدم ما يستطيعه من نشاط فى خدمة بلده ..

ثم ابتعد بسرعة عن برعى محمود ..

لم يكن ينتظر أن يكون على علم بكل ما يحدث .. أنها معلومات
سرية وفى أعلى درجات السرية .. من أين وصل إلى هذه المعلومات ..
هل وصل إليها عن طريق عبدالله عبدالصبور ؟ .. لا يمكن .. ان
عبدالله يكرهه بل يعتبره من أعداء الثورة .. ولا يمكن أن يكون قد
حصل على هذه الأسرار من جمال عبدالناصر .. ان المعروف عن

عبدالناصر أنه لا يقول شيئا ولا لأقرب الناس اليه الا إذا كان مضطرا
إلى قوله .. وهو ليس مضطرا لأن يقول لبرعى شيئا .. لاشك أن
برعى حصل على هذه المعلومات من الجانب الأمريكى .. لعل
أمريكا لا تستطيع أن تتحرك فى مصر الا عن طريق برعى أو
باستشارته .. ويجب أن يكون على علم بكل شىء حتى يقدم الرأى
والنصيحة كاستشار ..

كأن رفعت كان يعمل مع برعى لا مع أمريكا .. كأنه لن
يستطيع أبدا أن يقفز فوق برعى ليصل إلى أمريكا ..
لاهم ..

أنه لن يخسر شيئا بمحاولة اكتساب أمريكا متجديا برعى
محتفظا دائما بالاعتماد على الانجليز ..

وأزمة الأسلحة لن تحل .. لم يستطع مايكل ستوارت أن
يعدل من موقف أمريكا ولعله كان يخدع عبدالناصر ويخدع عبدالله
عبدالصبور ويخدعه لجرد أن يخرج من خداعه بأسرار جديدة عن
تخطيط الثورة .. إلى أن سافر جمال عبدالناصر إلى باندونج وقد قرر
أن يخطو الخطوة الحاسمة .. ستفتح مصر الباب أمام الاتحاد السوفيتى ..
وقد بذل رفعت كل نشاطه ليجمع أخبار هذه الخطوة الحاسمة ..
اتصل بأرقى المستويات وبالمستويات العادية .. بكل من كان مع
عبدالناصر فى باندونج .. ثم بأصدقائه فى سفارة الهند ويوغوسلافيا
وهو متأكد من تأثير شهرو وتيتو على عبدالناصر وقد كانا معه فى

باندونج .. ثم عرف أن الذي أقنع عبدالناصر بالاتحاد السوفيتي هو شوين لاي الزعيم الصيني فاستطاع بسرعة أن يقيم اتصالات مع سفارة الصين ويستزيد من المعلومات .. ويتسهم رفعت وهو يستعيد ذكرياته .. ان شوين لاي دفع مصر الى الاتحاد السوفيتي عندما كانت الصين متحالفة معها وهو لا يدري أنه بعد ثلاثة أعوام سيعلن الحرب على الاتحاد السوفيتي ..

وقد أصبح لدى رفعت زخيرة هائلة من المعلومات وفي وقت أصبح الوضع العالمي كله على وشك الانهيار بالنسبة لمصر .. من الأفضل أن يسافر الى لندن لتوصيل هذه المعلومات بنفسه .. لماذا لا يسافر الى واشنطن أيضا لابلاغ معلوماته .. انها معلومات تفرح بها واشنطن وتطير من الفرح .. وربما استطاع في واشنطن وبفضل المعلومات التي يقدمها أن يحقق صفقة .. أنه يحلم بأن يحقق أول صفقة تجارية له مع واشنطن ..

وسافر الى جنيف في سويسرا أولا .. فالعلاقات مقطوعة بين مصر وبريطانيا ويجب أن يكون أكثر احتراسا ولا يبدأ سفره بلندن .. وفي لندن أعطى الكثير من المعلومات ولكنه احتفظ بجزء منها لأمريكا .. انه يريد أن يقنع الأمريكيان بأنهم يستطيعون أن يأخذوا منه شخصا أكثر مما يأخذونه منه عن طريق الانجليز .. ومن لندن اتصل تليفونيا بواشنطن لتحديد موعد للقاء مايكل

ستيوارت .. لم يكن تحديد الموعد سهلا .. وكان موعدا غريبا .. انهم يطلبون منه أن يصل الى واشنطن .. وسيتصلون به في الفندق الذي يقيم فيه لتحديد موعد ومكان اللقاء .. لعله نفس الروتين المعتاد المعروف عن الادارة الأمريكية ..

وبقي رفعت في واشنطن حوالي أربعة أيام وهو في انتظار من يتصل به بالتليفون .. وعندما تحدد الموعد لم يكن حفلا يقيمه له مايكل ستيوارت .. ولا دعوة إلى الشاي في بيته أو على الأقل في مكتبه .. بل كان موعدا في بهو أحد الفنادق البعيدة .. واستقبله مايكل في برود .. كأنه نسي فضله في تدبير لقاء له مع عبدالناصر .. أو أن لقاء عبدالناصر لم يكن له كل هذه الأهمية التي كان يقدرها .. وبدأ رفعت يسرد معلوماته ومايكل يستمع وهو يردد كلمة .. مفهوم .. مفهوم .. دون أن تبدو عليه دهشة أو انزعاج أو فرحة أو أي احساس .. وقال رفعت كأنه يحاول أن يثيره :

— اني أخشى أن تكون أمريكا على وشك أن تخسر مصر ..

وصحك مايكل ضحكة ساخرة قائلا :

— لماذا لا تقول ان مصر هي التي تخسر أمريكا .. وتأكد أننا حسبنا حساب كل شيء ..

ثم قام مايكل واقفا مستطردا :

— آسف يجب أن أذهب .. ورأى أعمال مفضية .. شرفتنا في واشنطن ..

وهكذا انتهى اللقاء ..

لم يبد أن مايكل كان مرحبا بالمعلومات التي قدمها له .. ولم يطلب منه لقاء ثانيا ولم يكلفه بأي خدمة يقدمها لأمريكا .. بل يبدو أن مايكل لم يقابله الا كنوع من أداء مظاهر الواجب .. أنها خيبة كبيرة .. سافر رفعت حتى واشنطن ولم يعد الا بالحيية ..

انه لم يصل إلى شيء مع أمريكا الا إذا أراح برعى محمود عن طريقه .. أراحه من مصر كلها ..

ولكن وهو في طريق عودته بدأ فكرة جديدة تطرأ على تفكيره .. ان أمريكا في طريقها إلى الزوح عن مصر وسيحل محلها قطعاً الاتحاد السوفيتي .. ان العالم كله اما أن يعتمد على أمريكا أو على الاتحاد السوفيتي .. فلماذا لا يتحول هو الآخر .. يتحول من أمريكا إلى الاتحاد السوفيتي .. ويجب أن يبدأ من الآن قبل أن يستكمل الاتحاد السوفيتي وجوده في مصر حتى لا يبدو كأنه من بين قطع الأغنام ..

وأقام وهو في طريقه إلى مصر بضعة أيام في لندن ..

أنه مهما تجاذبت الأفكار ستبقى لندن دائماً هي الأصل .. هي الحب والذنب لمصر كلها ..

وابتسم رفعت ابتسامة واسعة وهو يتذكر أيامه مع الاتحاد السوفيتي .. ابتسامة تفيض بغروره واعتزازه بنفسه وبذكائه .. أنه

العبقري رفعت البيومي .. وكانت قد بدأت معركة جديدة داخل مصر .. معركة الأصدقاء كما كانت المعركة بين أمريكا وبريطانيا .. انها معركة صريحة عنيفة بين عدوين للدودين .. معركة أمريكا والاتحاد السوفيتي .. ويجب أن يحدد موقفه من هذه المعركة .. والعبقري لا ينحاز في أي معركة إلى جانب وبغادي جانب .. إنما يكسب صداقة القوى محتفظاً بثقة الضعيف ..

ولاشك أن الاتحاد السوفيتي أصبح الآن هو القوة في مصر .. وهو في حاجة إلى اكتساب هذه القوة ولكن في الوقت نفسه يجب ألا يضحى بصداقة لندن أو يعرض هذه الصداقة للشك الذي قد ينتهي بفقدان الثقة .. ويجب في الوقت نفسه أن يحتفظ باقتناع أمريكا بأنه رجل الانجليز وأنه لم يتحول إلى الجانب الآخر ويصبح رجل السوفيت .. أن رجل الانجليز تعتبره أمريكا رجلاً أما رجل السوفيت فهو عدوها .. ومن يدري ما ستكون عليه نهاية هذه المعركة .. ربما تعود أمريكا وتسترد كل قواها في مصر .. يجب أن يجتهد ويحسب حسابه .. هذه هي شيمة العبقرة ..

ولم يكن قد سبق له التعامل مع الاتحاد السوفيتي في أي صورة من الصور ولا في أي ناحية من نواحي التعامل .. أنه لا يفهم عرفهم ويجب أن يبذل مجهوداً في اكتشاف طبيعتهم وتفاصيل الأسس التي يجب أن يعتمد عليها للوصول إلى التعامل معهم .. وكانت طائفة

جديدة قد بدأت تطفوا على سطح مصر .. سطوح الحكم .. طائفة الشيوعيون الماركسيون .. وهو لم يكن أبدا محارب الماركسية حريا صريحة عتيقة .. إنما فقط كان يشجب بعيدا عن اهتمامه .. وكان من بين معارفه من شيان ورجال الحركة الوطنية نفر قليل يعرف أنهم ينتمون إلى تنظيمات ماركسية .. لقد كان الماركسيون يدرسون أنفسهم ويتسللون إلى داخل كل حركة وطنية مهما كان لونها أو اتجاهها .. ولكنه لم يكن يهتم هؤلاء الماركسيين أو يقربهم إليه .. كان يكتفى بأن يتبادل معهم الكلمات الطنانة المعروفة .. كانوا في نظره ضعفاء لا يساوون شيئا في التأثير على الحكم .. ولكنهم اليوم أصبحوا أقوياء .. أصبحوا القوة الوحيدة المسيطرة على تصريف الأمور داخل مصر وكثير من أفرادهم وصلوا فجأة إلى مناصب تحملهم مسئولية الحكم ..

واستطاع بسرعة أن يقرب أصدقاءه الماركسيين القدامى وأن يصل من خلالهم إلى أصدقاء جدد خصوصا إلى القيادات الماركسية التي بدأت تشترك في الحكم ، ولكنه وصل إلى التعارف ببعض رجال السفارة السوفيتية في مصر .. والسفارة التشيكية .. والسفارة الرومانية .. وسفارة ألمانيا الشرقية .. و .. و .. وكل سفارات الجبهة الشرقية .. وقد وصل ببعض هذه الصداقات إلى صداقات شخصية بعيدة عن الرسمية .. أنهم يحبون الدعوة إلى الجلسات

الساهرة وكان مما أدهشه أنهم يفضلون شرب الويسكى على شرب القود كما .. وأكل السوسيس على أكل الكافيار .. غريبة ..

ولم يحاول أن يقدم نفسه إلى أصدقائه الجدد في هذه الفترة كمصدر معلومات يمكن أن يتعاملوا معه ويعتمدوا عليه .. إنما كان حريصا على أن يقدم نفسه ويعرفونه كرجل أعمال من كبار رجال الأعمال في مصر المقربين إلى الحكام .. كما لم يحاول أن يتقرب إليهم بادعاء ايمانه ولا حتى تأييده للمذهب الماركسي .. أنه ليس ماركسيا ولا هو ضد الماركسية .. إنه رجل أعمال لا يضيع وقته وجهده في مناقشة المذاهب .. وبصراحة .. ليس له مذهب .. أنه فقط صاحب مصالح .. وقد اكتشف أن الروس وكل من في دائرتهم يرتاحون أكثر في اجراء العمليات التجارية البعيدة عن السياسة من غير الماركسيين .. وأغلب الذين يتولون عمليات التصدير والاستيراد بين مصر ودول الاتحاد السوفيتي ليسوا من الماركسيين أو من أفراد التنظيمات الماركسية .. أن مهمة هؤلاء قاصرة على التحركات السياسية .. أما العمليات التجارية والاقتصادية فإن الروس يريدون أن يرتاحوا في أدائها من المناقشات والشعارات المذهبية حتى يكونون أكثر حرية فيكبسوا أكثر .. وحتى في تخطيط التحركات السوفيتية داخل دول العالم لا يحرص السوفيت اعتمادهم على قادة أو زعماء ماركسيين .. ان جمال عبدالناصر لم يكن ماركسيا رغم أنه كان اليد الأولى التي اعتدت وشدهم إلى داخل

دنيا العرب .. وحافظ الأسد حاكم سوريا ليس ماركسيا ولا مع
معدن القذافي حاكم ليبيا ، ولانبروا حاكم الهند الذي فتح أمامهم
أبوابه السياسية .. وبالعكس .. كانت أعنف حرب سياسية خاضتها
روسيا مع دولة صغيرة حربا مع قائد ماركسي .. مع تيتو الرئيس
اليوغوسلافي .. لذلك كله فلاهم رفعت البيومي أن يدعى الماركسيه
حتى يكسب صداقة السوفيت .. ان كل مايمهم موسكو هو ماذا
تأخذ وماذا تعطى ..

و كان المشروع الأول الذي وضعته للتعامل مع الاتحاد السوفيتي
مشروعاً غريباً ..

انه لن يصدر من مصر ويستورد من الاتحاد السوفيتي مباشرة ..
ولكنه يصدر من إنجلترا إلى الاتحاد السوفيتي ، ثم يصدر الاتحاد
السوفيتي إلى مصر .. انها عملية لايقوم بها إلا عباقرة رجال الأعمال
الذين يستوردون بعملياتهم العالم كله ..

وربما كان ما دفعه إلى تخطيط هذه العملية هو رغبته في
الخروب من التعامل بحساب الروبل .. أنه لايعترف بهذه العملة رغم
كل عظمة الاتحاد السوفيتي .. بل أنه اكتشف أن الروس يفضلون
أن تقوم كل عملياتهم الخارجية بحساب الدولار .. أنهم لا يستطيعون
أن يهربوا أو يتعالوا على قوة عملة العدو .. قوة الدولار .. وهذه
العملية ستعفيه من شراء الدولار .. ولكنه ربما كان يريد في الوقت
نفسه أن ينشئ عن نفسه شبه الانتقال إلى الجانب الآخر من المعركة

الدائرة داخل مصر .. الجانب السوفيتي .. أنه يعلن اعتماده على
صداقة الانجليز والاشترك مع الشعب الانجليزي في تصدير منتجاته
إلى الخارج ..

و كانت العملية التي خطط لها عملية صغيرة بحرب بها ما يمكن
أن يتسع لها المستقبل .. كانت عملية تقوم على تصدير شحنات من
الشيكولاته من لندن إلى موسكو نظير تصدير شحنات من الأقمشة
القطنية إلى القاهرة .. ويمكن أن تقبل موسكو استيراد الشيكولاته ..
ان الحكم الماركسي لا يخل على الشعب الروسي متعة تذوق
الشيكولاته المودرن الراقية بجانب الشيكولاته المحلية .. هذه العملية
كلفتة من المتاعب أكثر مما كلفتة أكبر عملية قام بها في حياته ..
ان الروتين الروسي أعنف تعقيدا من الروتين المتبع في أى بلد من
بلاد العالم .. والعمليات لا تتم الا من خلال سراديب تحتية ولا يمكن
أن تسير بها في شوارع مفتوحة مريحة .. وكان لا يمكن أن تتم
العملية عن طريق اتصالاته بالسفارة السوفيتية في القاهرة ، ولا
بسفارتهم في لندن ، واضطر أن يسافر إلى موسكو .. لقد كان
يريد السفر إلى موسكو لعله يستطيع أن يتعارف هناك بشخصيات
لها قيمة يقيم معها علاقات على مجال أوسع .. وقد سافر كرجل من
رجال الأعمال .. لا كصديق من أصدقاء نقل المعلومات .. مجرد
رجل أعمال في عمل .. وقد استقبل هناك بترحاب كبير من كل من
كان العمل يتيح له لقاءهم .. وربما كان هذا الترحاب لأنه معروف

عنه أنه مقرب لرجال القيادة في مصر .. وربما كانت هذه هي طبيعة المسئولين الروس .. طبيعة شرقية في المبالغة بالترحيب .. خصوصا الترحيب بعمليات اقتصادية .. وقد استطاع أن يستغل هذا الترحاب في التعرف بشخصيات مسئولة بل استطاع أن يصل إلى لقاء الوزير المختص ، ولكنه وجد نفسه حائرا في تحديد قيمة مسئولية كل من يقابله ومدى نفوذه وسيطرته ونوع اختصاصه .. أنك في روسيا تحس أنهم كلهم مسئولين أصحاب نفوذ وسيطرة وفي الوقت نفسه تحس أن ليس بينهم من يعتبر مسئولا أو صاحب نفوذ وسيطرة ..

شيء آخر اكتشفه في تعامله الأول مع الاتحاد السوفيتي .. وهو أنه يجب أن يدفع .. أن يدفع لمن يحملون أو يوقعون الأوراق .. وهو قد تعود الدفع .. العمليات كلها في كل العالم تفرض عليك أن تدفع بعيداً عن تحديد الأسعار .. ولكن الدفع في التعامل مع الدول الأخرى سهل .. بسيط .. صريح .. أنك تدفع عمولة مقرر شرعا بحكم القانون .. ولكن القانون في الاتحاد السوفيتي يحرم العمولة .. لا يبيح الدفع لمن يحمل الأوراق .. ان الدفع يعتبر جريمة .. رشوة .. ورغم ذلك اكتشف أنه يجب أن يدفع داخل السرايب التحتية .. حتى في موسكو اضطر أن يدفع وإن كان أكثر ما يدفعه يقدمه في شكل هدايا .. وكان بعضها هدايا ساذجة ولكنها تفرح من يقدمها إليه ولو كانت مجرد مجموعة من اللبان

التشككتس الأمريكي أو بضعة علب من سجائر مارلبورو .. أنها أشياء يشاقها ويحلم بها الناس هناك ..

ورغم أن قيمة ما تعود أن يدفعه أقل من قيمة العملات التي يدفعها في الدول الأخرى التي تعتبر دولاً رأسمالية ، ولكن وسيلة الدفع كانت دائما متعبة تهدده بالخطر ، حتى أنه مع استمرار تعامله مع الاتحاد السوفيتي بسبب في تغيير طاقم السفارة الروسية في مصر مرتين لأنهم بهم بأنهم أخذوا منه عمولات .. رشاوى ..

وقد استغرقت العملية الأولى التي قام بها أكثر من ستة شهور متعبة منهكة ولكنه تحملها بصبر لأنه كان يريد أن يخطو الخطوة الأولى في اكتساب صداقة الاتحاد السوفيتي ..

وقد كسبها واستمرت الخطوات ..

...

ودخلت عليه زوجته آمال وهي في ثوب النوم وقالت من خلال ابتسامتها الحلوة المحترمة :

— ماذا جرى لك .. هذه ثان ليلة تنفرد فيها وحدك صامتا إلى ما بعد منتصف الليل ..

وقال ضاحكا :

— أني لست صامتا .. أني أعيش في حديث طويل مع ذكرياتي .. وأنت تعلمين إنني أمر بظروف تتركني متفرغا

للكريات .. أن الماضي فيه ما يعينني عن المستقبل .. ومن أجل
خاطري أترك كيني أعيش الذكريات ..

ومسحت آمال بيدها على شعر رأسه الأكرت في حنان كأنها
تحفف عنه قسوة الظروف التي تعلم أنه يمر بها .. ثم ابتعدت وتركته
لذكرياته ..

ورفع السيجار الهافانا القخم إلى شفتيه وابشتم ابتسامة واسعة
وهو ينفث الدخان ..

انه خلال هذه الفترة التي بدأ فيها حياته مع الاتحاد السوفيتي لم
ينس أبدا برعى محمود رجل أمريكا الأول في مصر .. لقد استطاع
أن يسحقه ويزيحه من طريقه .. لم يكن يستطيع أن يتحرر من
اصراره على الاستيلاء على أمريكا أو مشاركتها فيها ..
انه إلى اليوم لا يزال يحلم بأمريكا ..

(٧)

كان رفعت البيوي جالسا في الصباح على مقعد في الحجرة
الملحقة بالحمام والمغطى جدرانها بالمرمر والبلاط القيشاني بينما الحلاق
الخاص بيخلق له ذقنه ويهذب شعيرات رأسه .. ورئيس الخدم
واقف يراقب موسى ومقص الحلاق كأنه مسئول عن كل شعرة
من الشعيرات الغالية في ذقن وعلى رأس السيد .. جناب اللورد
رفعت .. بينما يستعد لاعداد الحمام حيث تعود جناب اللورد أن
يقف تحت الدش كل صباح .. ثم يعد له ثيابه ويركع تحت قدميه
وهو يلبسه المنطلون والخذاء ويقف خلف ظهره وهو يلبسه القميص
والجاكت مع عقد رباط العنق حول الرقبة المصونة ..

ورفعت جالس وصلته منفوخ بإحساسه بالعظمة وبالغز
والمخامة التي حققها لنفسه .. أنه هو الذي أقام هذه الحجرة اللامعة

بالمرمر فلم تكن من بين تنظيم الشقة عندما استأجرها .. ان الحمام الذى تستحم فيه ملكة إنجلترا فى قصر بكنجهام ملحق به مثل هذه الحجرة .. ومن كان يصدق أن يكون له حلاقا خاصا يأتيه كل صباح وكل مساء ليشذب ذقنه وشعره .. إنه يدفع لهذا الحلاق أتعابا تصل إلى حوالى مائة جنيه فى الشهر .. من كان يصدق .. أنه عندما كان طفلا فى كفر البطيخ لم يكن يلمسه مقص حلاق الا كل شهر مرة أو كل شهرين ولا يتقاضى أتعابا سوى قرش واحد .. يذكر أنه كان قرش تعريفة .. نصف قرش .. وقد ارتقى بعد أن انتقل إلى القاهرة وعاش فى المدارس وأصبح يدفع للحلاق قرشا كاملا .. ثم قرشين .. ثم ثلاثة قروش .. ولم يكن يتخيل أنه سيأتى عليه اليوم الذى يدفع فيه للحلاق مائة جنيه فى الشهر .. ويدفع بارادته ومزاجه .. يدفع استكمالا للعظمة التى وصل إليها .. إن المثل الشعبى يقول « أفحت الأرض تنتج بطيخ » ولكن ذكائه كان أوسع فهاجر من كفر البطيخ وفحت فى أرض أخرى فانتج الملايين .. إنه مليونير ..

و كان رفعت فى جلسته متكاسلا لا يتعجل الحلاق ولا رئيس الخدم فى الانتباه من اعداده ليخرج إلى العمل كما كانت عادته .. أنه هائم مع ذكرياته .. والذكريات يتمتع بها حتى أن منعه تحريمه أيضا من النوم .. ان أغلى ما يلقى لديه هو الذكريات ..

وهو يذكر أنه بعد الثورة يعتمد أن يحتفى كل مظاهر العز التى وصل إليها .. حتى أنه كان يعتمد اختيار البدل وأربطة العنق المتواضعة ليندو بها أمام طبقة الحكام الجدد .. وركن السيارة المرميلى التى كانت تحمله فى شوارع القاهرة وأصبح يركب سيارة بيجو عادية رغم أن السيارة التى لا يزال يحتفظ بها فى لندن وينقل بها فى شوارعها سيارة من ماركة رولز رويس .. سيارة أصحاب الملايين .. أن رجال الثورة غلبة يحقدون على أصحاب الملايين وهو لا يريد أن يصيبه حقدهم .. بل كان عندما يدعو بعضهم إلى بيته بأمر رئيس الخدم بأن يحتفى فى المطبخ ويقوم السفرجى وحده بالخدمة .. كل البيوت يقوم على خدمتها سفرجية .. ولكنه احتفظ بكل مظاهر العز والفخامة لنفسه فى حياته الخاصة داخل بيته .. أنه لا يستطيع أن يحرم نفسه من متعة العظمة التى وصل إليها .. عظمة اللوردات .. ولو اضطر أن يحتفى هذه المتعة بعيدا عن التفاخر بها أمام الناس ..

وقد استطاع بذلك أن يكسب صداقة رجال الثورة .. الصداقة الشخصية والثقة المطلقة .. وطبعاً لم يكن اختيار المظهر هو الأساس الذى وصل به إلى هذا الكسب .. ولكنها الخدمات .. أثبت أن الثورة كلها تستطيع أن تعتمد عليه فى تقديم هذا النوع من الخدمات .. حتى أصبح يعتبر فى مجاله الرجل الأول للثورة خصوصا بعد أن استطاع أن يقضى على غريمه رجل أمريكا الأول فى مصر برعى محمود ..

كانت الأزمة قد اشتدت بين مصر وأمريكا حتى وصلت إلى أن أصبحت أمريكا وكأنها تخلت عن مصر وقطعت كل علاقة لها بها ، وتركتها كسبا كاملا للاتحاد السوفيتي .. وبدأت قيادة الثورة تبعد كل أصدقاء أمريكا أو كل من له علاقة بها حتى لو كان مجرد رأساليا صغيرا صاحب ورشة أو محل بقالة .. يكفي أن يكون رأساليا ليكون مرتبطا بأمريكا .. ولكن برعى محمود كان له وضع آخر .. كانت الثورة تعلم أنه أمريكي واتفقت معه على أن يعمل لحسابها مع أمريكا .. أي أنه لم يكن عميلا أو جاسوسا يعمل تحت الأرض بل كان صديقا لكلا الطرفين .. بل أنه عندما اشتدت الأزمات كان يبذل مجهودا أثر في محاولة خدمة الثورة .. ربما ليس بدافع الوطنية وحدها أو إيمانا بالثورة وحبا في رجاها ولكن لأن بقاء أمريكا في مصر بقاء له وضمان لأطباعه .. ثم أنه لاشك حقق كثيرا من الخدمات التي كانت تطلبها منه الثورة .. لعله كان له فضل في تحديد موقف أمريكا الذي أدى إلى انسحاب القوات المعتدية عام ٥٦ .. ثم أن الثورة يمكن أن تفضل الاحتفاظ به سلبا بعد أن انقطعت العلاقات مع أمريكا .. أنه لم يكن له دخل في هذه القطيعة ولم يكن يتمناها .. إنما هي نتيجة مباشرة للخط الذي اختارته الثورة .. ثم لعل الثورة تحتاج إليه لأن احتياج مصر لأمريكا لا يمكن أن ينتهي نهائيا ..

لذلك لم تقدم الثورة على التفكير في القضاء على برعى محمود رغم كل الإجراءات التي اتخذتها في إبعاد أصدقاء أمريكا .. لم يعد مقربا .. ولكنه ظل محتفظ بحريته وبقدرته على التحرك ومزاولة نشاطه كرجل أعمال .. بل أنه كان لا يزال مستمرا في عمليات الاستيراد من أمريكا .. ولو كان لم يعد يستطيع أحد استيراد المواد الاستهلاكية البسيطة لم تعد هناك مشروعات كبيرة تخص الدولة يمكن أن يتولاها ..

ولكن

ولكن برعى محمود لا يزال خطرا على رفعت البيومي .. ومن يدري .. قد يستطيع في مرحلة قادمة أن يعود بأمريكا إلى مصر .. أنه خطر حتى مجرد احتفاظه بقيمته وتقدير أهميته ..

وفكر رفعت البيومي وهدته عبقريته إلى لحن جديد بدأ يعزفه في كل مكان .. اننا لانستطيع أن ننتقم من أمريكا الا بالقضاء على رجلها الأول برعى محمود .. وكان يردد هذا اللحن مع كل من يجلس اليه من رجال القيادة ويردده ضاحكا كأنه يلقي بنكتة حتى يبدو وكأنه لا يقصد التخلص من برعى بدافع حقه عليه إنما هو يقصد فقط الانتقام من أمريكا .. اننا إذا كنا نريد جلاء أمريكا فلن يتم جلاؤها عن البلاد العربية كلها الا بجلاء برعى محمود عنا .. ومضت شهور طويلة بلغت الأعوام وبرعى محمود لا يزال محتفظا بحريته وأهميته .. بل أنه عرف أن القيادة بدأت تعاود الاتصال به

مرا وتكلفه بالاتصال بأمريكا للوصول إلى معاملات لاتزال مصر في حاجة إليها ولتصفية بعض المشاكل التي لاتزال قائمة .. ولاشك أن مهمة برعى في هذه الأيام كانت صعبة فإن الإدارة الأمريكية كانت قد فقدت ثقها في جمال عبدالناصر ولم تعد تقبل أي تعامل مع مصر إلا إذا سقط عبدالناصر واخفى من مصر .. وقد عجز برعى عن إقناع الإدارة الأمريكية بتعديل موقفها وإثارة الأمل في أن يعتدل عبدالناصر في موقفه منها .. أنه ليس مر كينيا .. ثم فجأة وبعد كل هذه الشهور .. وبعد أن كان رفعت البيومي نفسه قد فقد الأمل .. وأعلن فرض الحراسة على برعى محمود .. كل شيء ملكه أو يتبعه مدت الحكومة مائة أصابعها إليه واستولت عليه .. واحتل رجال المخابرات مكتبه وفتحوا أدراجهم .. ولم يتبقى يومين حتى قبض على برعى وقدم إلى المحاكمة .. هذه المحاكمات التي كانت تتم في مراديب إدارة المخابرات .. محاكمات القصد منها استكمال الشكل ونتائجها معروفة مقدما .. وقد وصلت إلى رفعت تفاصيل هذه المحاكمات .. لقد واجهوه بتسجيلات عن كل المحادثات التي كانت تدور بينه وبين أصدقائه الأمريكيين .. وبتهمه المحقق .. لقد كنت تطلب من الأمريكيين كذا وكذا .. ويرد برعى في هدوء قائلا .. لقد كنت أطلب ما تطلبه القيادة من الأمريكيين وبناء على تعليماتها .. ويعود المحقق إليهم .. أن الأمريكيين كانوا يقولون لك كذا وكذا .. ويرد برعى .. كل كلمة كنت أسمعها من الأمريكيين كنت أنقلها إلى القيادة ..

ولكن التسجيلات بدأت تروى حكاية اتفاق بين برعى والأمريكان على أحداث انقلاب في مصر بطيح بحال عبدالناصر .. وصاح برعى وهو يسمع صوته مسجلا .. لم أقل هذا الكلام .. هذا التسجيل مزور مزيف .. وانهايت صغرة قوية على قفاه .. كيف يكذب تسجيلا تقدمه المخابرات ..

وربما كان ما أدهش رفعت أن المخابرات جمعت بعض الشهود يشهدون ضد برعى ويؤكدون اتهامه وكلهم من رجال برعى نفسه .. كان صاحب الفضل عليهم وكانوا يعملون معه ويسرون في ركابه وليس لأحد منهم قيمة الا قيمة انتسابه الى برعى .. وبلغت الدهشة برفعت الى حد أنه بدأ يعاني من احساسه تجاه أصدقائه ومعاونيه هو الآخر .. من يدري .. ربما وقفوا كلهم شهودا ضده اذا تغيرت الأحداث وقدم إلى مثل هذه المحاكمة ..

وقد بدأ يشفق على برعى .. انه هو السبب .. هو الذي أقنع قيادة الحكم بأن الانتقام من أمريكا لا يتحقق الا بالانتقام من برعى .. بل أنه خطر له أن يستغل اتصالاته للافراج عن برعى .. ولكن مستحيل .. أنه قرار اتخذته القادة الأعلى وهو قد تعلم أن يؤيد كل قرار يتخذه القادة الأعلى حتى لو لم يكن مقتنعا به .. لماذا يعرض نفسه لمجادلة القادة مما قد يفقده ثقته فيه .. لماذا يدوش دماغ القائد الرئيس وهو يعلم أن دماغه لن تعد تحتمل الدوشة .. ولم تعد تتسع

إلى أكثر من حريته المطلقة في اتخاذ أى قرار .. وسكت رفعت
وليحدث لبرعى ما يحدث حتى لو أعدم .. سكت وأن كان في
دخيلة نفسه يزداد خوفا وحرجا .. انه هو وبرعى يعملان عملا
واحدا وأن اختلفت المجالات .. وما يحدث لأحدهما قد يحدث للآخر ..
ولكنه واثق من عقربته وذكائه .. ان ما يحدث لبرعى لا يمكن
أن يحدث له ..

ودون أن يتدخل أو ينطق بكلمة في صالح برعى فوجيء
بالافراج عنه بعد انقضاء أسبوعين على اعتقاله .. ولا يدري لماذا
أفراج عنه .. ربما استطاعت الادارة الأمريكية أن تتدخل للافراج
عنه نظير حل مشكلة من المشاكل التي لم تحل بينها وبين
مصر .. ربما استطاعت أن تفرج عنه نظير كفيه من التمتع ترسلها
إلى مصر .. أى دفعت ثمن الافراج بالدولارات .. وربما كانت قد
سلطت أصدقاءها من الرؤساء العرب الآخرين للتوسط لدى عبدالناصر
للافراج عنه .. انه لا يدري .. ولكنه واثق من أن الافراج عن
برعى ليس معناه اطلاق حريته واستعادته لمكانته وقوته .. بدليل
أنه رغم الافراج عنه لم ترفع الحراسة عن كل ما يملكه ويتبعه ..
أنه لن يعود إلى قيمته الا اذا عادت أمريكا إلى مصر .. وأمريكا
لن تعود .. وقد يعود برعى إلى السجن ..

ولكنه فوجيء بعد أيام باختفاء برعى من مصر كلها .. مسافر

إلى أمريكا .. هل هرب .. أم أن الوسطاء الذين سعيوا للافراج عنه
كانوا قد اتفقوا على أن يسمح له بمغادرة مصر ..

ومن يومها وأخبار برعى تصله من أمريكا .. لقد وصل هناك
إلى أعلى مما كان قد وصل اليه في مصر .. لقد أصبح رجل أمريكا
في كل البلاد العربية .. وهو من الأصل كان قد أقام صداقات
قوية مع كثير من الرؤساء العرب .. وقد قام وهو في أمريكا بجانب
مسئوليته السياسية بكثير من الصفقات والعمليات مع هذه البلاد
العربية .. عمليات أضخم بكثير من العمليات التي كان يقوم بها في
مصر .. أصبح صاحب ملايين الملايين ..

المهم ..

لقد أصبح رفعت بعد أن أراح برعى من مصر هو الرجل الأول
الوحيد .. ليس رجل الانجليز فحسب ولكن رجل قادة الثورة ..
رجل الحاكم .. وقد بلغ من اعتزازه بفرضته انه اشترى من الحراسة
الأرض الزراعية الواسعة التي كان يملكها برعى وكان يقيم عليها
كثير من المشروعات .. أن ثمن الفدان كان قد وصل إلى أكثر من
خمسین ألفا .. ولكنه اشتراه من الحراسة بألف .. ولم يكن هو
نفسه من هواة الزراعة ولا المشروعات الزراعية انه يكره الزراعة
ويحتقرها منذ أيام كفر البطيخ .. ولكنه اشترى هذه الأرض كأنه
يشترى برعى محمود .. فقط ليتمتع بانتصاره وبانفراذه بالحكم ..

ولم يكن يستمد قوته من أنه أصبح الرجل الأول الذي يعتمد عليه الحكم في هذا النوع من العمليات فقد استطاع أن يكتب اعتماد الاتحاد السوفيتي أيضا عليه ..

وعاد رفعت يستعيد ذكرياته مع الروس ..

لقد ظل دائما حريصا على أن يتعامل معهم على أنه رجل أعمال لا أكثر .. وليس عميل معلومات .. ولكنه كان بين الحين والآخر يفوت لهم بعض المعلومات التي يقدر أنها تهمهم .. وكان يعتمد ألا يبدو عليه أنه يبلغهم بشيء هام .. كان يعطيهم معلومات خلال حديث عادي بريء كأنه مجرد صديق يقطع الوقت بالكلام .. ولا يعلق بشيء عندما يلحظ دهشتهم بما يسمعون منه .. أو يبدى دهشته من كثرة الأسئلة التي يطرحونها عليه مع كل خبر .. أنه يتكلم دائما بلا مبالاة كأن الموضوع الذي يتحدث فيه لا يهجه مادام خارج عن اختصاصه كرجل أعمال كل ما يهجه التصدير والاستيراد .. وكان يفوت عليهم هذه المعلومات كرشوة نظير تسهيل أعماله .. وربما كان اصدقاءه الروس من رجال السفارة من الذكاء بحيث اكتشفوا أنه ليس بريئا ولا ساذجا ولكنه يعتمد ابلاغهم بالمعلومات ليثبت أنه صديق يعمل لحسابهم .. وقد رحبوا بهذه الصداقة التي تدر عليهم هذه المعلومات .. أنها فعلا معلومات هامة خطيرة تصل أهميتها إلى أعلى المستويات .. ولا شك أنه صدرت لهم تعليمات بتسهيل كل العمليات التي يقوم بها معهم .. وقد اتسعت عملياته

اتساعا واسعا .. أصبح يحتكر تصدير القطن اليهم .. والأحذية .. والملابس الداخلية .. و .. و .. ويستورد منهم الآلات وسيارات موسكوفتش ..

ومعروف أن النظام السوفيتي يفرض أن تقوم المعاملات بين الحكومات مباشرة .. أي إلغاء مهمة الوسيط .. ولكن نظام مكتوب على الورق والواقع أن موسكو لها دائما وسيط يتحمل مسؤولية التعامل بينها وبين أي حكومة أجنبية حتى لو كانت من الحكومات الصديقة .. وإن كانت تفضل ألا يكون هذا الوسيط شركة من الشركات المعروفة ، إنما مجرد شخص صديق يمكن أن تعتمد عليه .. وهي تمسك بالوسيط الذي تختاره إلى حد أنها ترفض أن يتدخل في عملياتها أي شخص آخر حتى لو كان هذا الشخص قد اختارته الدولة الأخرى .. وكان رفعت قد أصبح الوسيط الذي تعترف به روسيا وترفض أن تتعامل مع أي وسيط آخر رغم كثرة المحاولات التي قام بها البعض ليحلوا محله .. لم يكن رفعت هو الوسيط الوحيد كان أهمهم .. ثم أن المعلومات التي كان يقدمها رفعت كرشاوى لتوطيد علاقته بالروس وتسهيل عملياتهم معهم كان يستغلها أحيانا لحماية نفسه والتخلص من منافسيه الطامعين في القضاء عليه .. كان في إحدى جلسات الصداقة ويتكلم ببساطة عن هذا الشخص .. أنه يعرف أي عملية مع موسكو .. أنه حريص على خدمة الصين .. لقد زار الصين أكثر من مرة وعاد بروى حكايات سيئة عن صور

الصين العظيم .. ويقول رفعت هذا الكلام وهو يضحك كأنه يتكلم عن أمر عادي أو كأنه يروي نكتة .. ولكن المعلومات تؤثر في رجال السفارة الروسية ويتدخلون بالضغط على الحكومة المصرية حتى تبعد هذا الشخص عن مركزه ومسئوليته .. لقد أبعد رفعت الكثيرين من كبار المسئولين وكان بينهم اثنان من الماركسيين الذين تولوا مركزا مهما حلسا .. بل أنه استطاع أن يبعد أحد الوزراء .. مجرد أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يريدون الاستسلام له ..

وقد حقق أرباحا طائلة بتعامله مع الروس .. أنه الآن مليونير .. أنه أبعد ثراء مما وصل إليه أحمد عبود باشا الذي كان يحلم به منذ قبل الثورة ولم يكن يتصور أنه يمكن أن يصل الى مثل ثرائه يوم ما .. ولا شك أنه أصبح في نفس مستوى ثراء عثمان أحمد عثمان .. وليست بينه وبين عثمان منافسة .. ان كل منهما يعمل في مجال بعيد عن الآخر وبينهما صداقة عميقة .. صداقة يوظفها أن كل منهما يفهم الآخر وان كانا لا يتصارحان بما يفهمه كل منهما ..

أن التعامل مع الروس يحقق الملايين كالتعامل مع أمريكا أو أي دولة أخرى .. كل عمليات التصدير والاستيراد تعنى التعامل مع ثلاثة أطراف والثلاثة يعيشون في الملايين .. ولكن التعامل مع الروس متعب .. وهو تعب يتردد على ذهنه كلما تذكر أو كلما جلس جلسته يحدث نفسه ..

ان روتين الاجراءات التي تفرضها الادارة الروسية في تعاملها روتين معتد .. وأشد ما فيه من تعقيد هو أنه قائم على الكذب المستمر والتحايل الخفى .. ان الكلمة التي تقال والورقة التي توقع غير ما يتم فعلا وغير ما تمتد به كل يد إلى الأخرى .. وقد كلفته بعض العمليات أن يقضى شهورا طويلة في تعب وأن يسافر الى موسكو أكثر من مرة .. وكان التعب يبلغ به الى حد أن يقرر أن تكون هذه هي آخر عملية يقوم بها مع الروس .. ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه في عملية أخرى .. ربما كان من طبيعته أنه لا يستطيع أن يكف عن المتاعب في سبيل الوصول إلى أكثر .. وربما كان احساسه بأن الروس قد أصبحوا هم القوة المسيطرة على مصر .. كما كان الانجليز عندما بدأ في شبابه الاعتماد على قوتهم .. وكما كان الأمريكان الذين كان برعى محمود يعتمد على قوتهم وفشل هو في اغتصابهم منه .. هذا الاحساس يجعله لا يستطيع أن يريح نفسه من متاعب الروس .. انه لا يستطيع أن يتبعد عنهم إلا اذا ابتعد عن مصر ..

وهو يدفع الرشاوى لكل الشخصيات الروسية التي يحتاج اليها سواء من موظفين أو خبراء .. انه لا يسميها رشاوى .. أنها مجرد عمولات كالتي تعود أن يدفعها في كل العمليات .. ولكن العمولات ممنوعة قانونا في روسيا ولذلك تسمى رشاوى .. ويحظرها الخطر الذي قد ينتهي الى اعتبارها جريمة خصوصا اذا لم تكن

الحكومة راضية عن الشخص الذي تقضاها .. ورغم ذلك كان يتحمل المخازفة والا تعطلت كل العمليات .. وكان الموظفون الروس الذين يتقاضون عمولة يشترطون أن تدفع بالدولار .. وهم يهربون ما يحصلون عليه من الدولارات الى موسكو .. ان في موسكو سوقا سوداء واسعة للعمليات الصعبة أكبر عشرات المرات من سوق القاهرة .. وما كان يتعبه وينبذ عقلته .. عقلية كبار رجال الأعمال .. أنه لم يكن يستطيع أن يضيف هذه الرشاوى أو هذه العمولات بصراحة في كشف الحساب .. ويضيفها إلى ثمن البيع والشراء كما يفعل في حسابات العمليات التي يقوم بها مع لندن .. ورغم أن ما كان يدفعه للروس أقل بكثير من نسبة ما كان يدفعه الى المتعاملين الانجليز .. الى أن كانت تكلفه أكثر بدفع المزيد وهو يتحارب حتى يرفع ثمن البيع أو يخفض ثمن الشراء استرداذا لما دفعه .. أنها كلها عمليات متعبة منهكة ..

وربما كان ما يتعبه أكثر هو طبيعة أصدقائه الجدد من الروس .. يبدو عليهم أنهم محرومون من الحياة الاجتماعية الخاصة بهم لذلك يتلهفون على أى مجتمع آخر يدعون اليه .. ولا يلبون الدعوة إلى عشاء أو غداء أو سهرة مع الاحساس بأنهم يؤدون واجبا اجتماعيا ثقيلًا تفرضه عليهم مسئولياتهم الدبلوماسية ، بل يلبون الدعوة في فرح كأنهم يقبلون على جلسة أو ليلة ممتعة خصوصا اذا لم تكن الدعوة خاصة بين الأصدقاء الأجانب .. ويفرطون منذ البداية في

شرب الويسكى وفي الأكل ثم يبدأون في التهليل والغناء والرقص بعضهم مع بعض .. وقد أصبح حتى يكسبهم يقيم في بيته دعوة في كل ليلة تقريبا .. دعوات خاصة ليس لها مناسبة رسمية .. دعوة أصدقاء .. وكان يدعو المتزوج مع زوجته .. حتى يؤكد أسس الصداقة .. وقد عادت عليه هذه الدعوات فعلا بتحقيق عدم الكلفة بينه وبينهم .. وحقق كثير من العمليات من خلال كؤوس الويسكى .. وزوجته آمال ماهرة كست بيت في إعداد هذه الدعوات وإشاعة جو عدم الكلفة بين المدعوين دون أن تسأل لماذا أصبح كل المدعوين من الروس .. لاشك أنه ما يتطلبه عمل زوجها ومخرج عليها أن تسأله عن أسرار عمله أو عن الدوافع والمظاهر التي يفرضها العمل .. تعودت ألا تسأل .. كل ما هي مطالبة به أن تقوم بواجبها كست بيت وأن تحقق النجاح لكل ما يجري في بيتها ..

ولكن رفعت بدأ يلاحظ أن صديقه فلاديمير ماركوف يبذل مجهودا أكثر من اللازم في التقرب إلى زوجته .. أنه ينزوي بها في أحد الأركان ويتبادل معها الحديث طويلا .. لعله يتحدثها عن الأدب الروسي وآمال من هواة الأدب وتقرأ الكثير من القصص العالمية .. ثم يراه يمسك بيدها ويلعب بأصابعها وهما يتضحكان .. لعله يعلمها لعبة كشف الحظ من خلال أصابع اليد .. وبدأ رفعت يشك في تقرب فلاديمير إلى زوجته .. أنه شخصية مهمة من شخصيات التجاره ويملك تسهيل العمليات .. ولكن ليس معنى هذا أن

يستسلم له رفعت ويتركه يحاول هذه المحاولات مع زوجته .. وآمال
بريئة واثقة في نفسها إلى حد أنها يمكن ألا يخطر على بالها أن تشك
في نيات هذا الصديق .. يكفي أن تقوم بالترفيه عنه كواجب ست
البيت .. حتى لو كان يطلب منها تحديد موعد لقاء خاص بينهما ..
هل طلب منها موعدا .. ان آمال لا تشكو إليه من سفالة صديقه
ولا تقول له شيئا عما يجري بينها وبين المدعوين مادام ليس فيها
جى شيء يخصه ..

ولم يحتمل رفعت .. ما كاد يلحظ فلاديمير وهو يزوى بآمال
في إحدى الدعوات حتى ذهب وراءهما ووقف بينهما .. واشتدت
المناقشة حول موضوع تافه وفلاديمير ينظر إليه في ضيق كأنه يتهمه
بأنه تعدى على اختصاصه بالوقوف بينهما إلى أن قال له بصراحة :

— لماذا لا تذهب وتتفاهم مع زوجتي وتركني أتفاهم مع
زوجتك ..

ورد رفعت وهو يضحك ضحكة مفتعلة :

— إني لا أتفاهم مع الزوجات ولكني متخصص في التفاهم
مع الأزواج ..

وانتهت الليلة وسأل رفعت زوجها بعد أن اختليا :

— ما رأيك في فلاديمير ..

وقالت آمال في بساطة :

— لطيف ..

وقال وهو ينظر في عينيها كأنه يحاصرهما :

— ألم يتجراً عليك ويعبر عن سفالته ؟

وقالت آمال وهي تبسم في برادة هادئة :

— أبدا .. انه يروى لي كثير من القصص والحكايات ..

وأنت تعرف أني أحب القصص ..

لعل آمال لا تريد أن تكشف عن سفالة صديقي حرصا على
مصالحه معي .. حتى يستمر العمل هادئا .. ان الزوج الذكي هي
التي تحرص على صداقة زوجها مع من يعمل معهم ..

ورغم ذلك فقد قرر رفعت من يومها أن ينقل ليلى الدعوات
من شقة المظلة على النيل إلى الشقة التي في جاردن سيتي .. وكان
يدعو إليها أصدقاءه الروس مع زوجاتهم أيضا .. ان شقة جاردن
سيتي ليست جارسونية خاصة بالأزواج بلا زوجات وبالزوجات
بلا أزواج .. أنها شقة محترمة وان كانت لا تدخلها زوجته آمال ..
منذ تزوجها لم تدخل هذه الشقة ربما لأنه حريص على أن يبعدها
عن ذكرياته وحريص على أن يحتفظ لنفسه بحريته الكاملة داخلها ..
أما شقة عازب .. ولكنه بدأ يدعو إلى ليلى جاردن سيتي نوعا من
الزوجات المعروقات في المجتمع الراقى .. مجتمع رجال الأعمال ..
أمن زوجات متساهلات يستطعن أن يحين حفلة بمجرد وجودهن ..

ويدعون إلى كثير من مثل هذه السهرات بدل دعوة راقصة أو مطربة
أو فرقة موسيقية لأحياء الحفل .. رغم أن كل منهن لها زوج محترم
يتولى مركزا محترما .. ربما لم يصل الأزواج إلى هذه المراكز إلا
بفضل ذكاء الزوجات .. إن سميرة هانم تعرف بأنها تضحك دائما
وصوت ضحكاتها يلعلع من أول الحفل حتى آخره .. وضحكاتها
تلم حولها كل الرجال .. ربما تعودت هذا الإفراط في الضحك حتى
تلهي الناس عن النظر إلى صدرها .. إن نهدتها كبيرتان جدا
يرزان فوق صدرها كمدفعين من المدافع المضادة للطائرات ..
ولكن دمها خفيف إلى حد الإغراء وكأنه اغراء يدعوك إلى التمتع
به في الفراش .. ورفعت يذكر يوم مرت على فراشه .. أنها ممتعة ..
وميرفت هانم زوجة رائعة الجمال .. ولكنه جمال بارد .. وهي تدخل
إلى الحفل وتختار مكانا بارزا وتجلس فيه صامتة وبين شفيتها ابتسامة
هادئة وعينيها الذكيتين الجميلتين تدوران بين المدعوين تفحصهم
واحدا واحدا .. ومجرد وجودها صامتة يدفع كل الرجال إلى محاولة
التقرب إليها بشدهم جمالها .. وهي تستقبل كل رجل حسب أهمية
مركزه .. وتحدد مدى ما تعطيه .. بل مدى ما تسمح به من الجلوس
بجانبا .. هل تركه يحاول معها خمس دقائق أم عشرة أم تحتفظ به
طول السهرة إلى تحديد موعد للقاء الفراش .. أنها ذكية .. وقد مرت
على فراش رفعت .. أنها باردة رغم جمالها كل قطعة منها ولكنها
تبذل مجهودا كأنها بائع جيلاتى يحاول أن يمتعك بالكأس المثلج

الذى يقدمه لك .. و .. و .. كثيرات .. وكلهن يرحبن بالدعوة
مع أزواجهن .. يكفي أن الداعي هو رفعت يبه البيوى ..
وقد أنطلق أصدقاءه الروس أكثر في ليالى جاردن سیتی ..
كأنهم فهموا أن جاردن سیتی غير بيته في شارع النيل .. وقال له
صديقه فلاديمير في أحد الليالى :

— أين زوجتك آمال .. أننا نفتقدوها ..

وقال رفعت ضاحكا :

— انها تعتبر أنها هي التى ستدخل إمتحانات الجامعة وليس
الأولاد لذلك فهي مشغولة في المذاكرة ..

وقال فلاديمير ساخرا :

— ان الامتحانات ستنتهى يوما ما :

ولم يكن رفعت قد أبعد زوجته آمال عن كل لياليه ولكنه
حصر اعتماده عليها في إقامة الحفلات الرسمية في شقة النيل التى يدعو
إليها السفراء والوزراء ورجال الثورة والقيادة .. حتى يستريح من
نزعات كفر البطيخ التى تثور وتضايقه كلما حاول رجل أن يتقرب
إلى زوجته ..

وقد فوجئ يوما بصديقه فلاديمير يتصل به ويقول فى بساطة
ضاحكة :

— هل أستطيع أن أجد عندك مفتاح شقة خالية كشقة جاردن
سيتي مثلاً ؟

وقد دهش رفعت ولكنه أخفى دهشته وراء كلمات ضاحكة
وأسئلة كثيرة يوجهها ضمناً إلى فلاديمير .. أنه يريد الشقة ليلتقي
فيها بامرأة .. ولكن أى امرأة .. أن فلاديمير يرفض أن يصرح ..
لا يمكن أن يكون قد وصل إلى اقناع زوجته آمال والا لبحث عن
شقة لدى آخر .. ولكن ..

وقال رفعت في التليفون كأنه يستسلم :

— سأرسل لك المفتاح ..

وألقى جماعة التليفون وقبل أن تشد عليه شكوكه وحيرته دق
جرس التليفون وسمع صوت صديقه الضاحكة سميرة هائم تقول من
خلال ضحكاتهما :

— ان صديقك الروسي الذى اسمه فلاديمير يلح كثيراً .. ماذا
أفعل معه ..

وقال رفعت وقد أحس براحته كأنه أفاق من شكوكه وحيرته :

— لا تخيبي أملى .. أنه شخصية هامة .. كل أعمال السفارة بين
أصابعه ..

ان سميرة ذكية .. أنها لا تقدم على لقاء فلاديمير الا بعد أن
تستأذن رفعت حتى تتأكد من أن هذا اللقاء لا يتعارض مع أعماله ..

ومن يدري .. ربما لو التفت به سراً ثم كشف رفعت عن السر لصب
عليها غضبه .. وغضب رفعت بخرب البيوت ..

وبعد يومين عادت سميرة واتصلت به وقالت ضاحكة :

— ان أصدقاءك الروس لا يستحقون شيئاً ولا حتى لمسة يد ..

هل تدري ماذا أهداني صديقك فلاديمير .. عروس من الخشب
لا يمكن أن يتجاوز ثمنها في بلادهم عشرة قروش ..

وضحك رفعت قائلاً :

— أنهم بخلاء .. ولكنهم معذورون .. أنهم مفلسون ..

وقالت سميرة وضحكتها تلعلع في التليفون :

— لعلهم يؤمنون بالعدالة الاجتماعية حتى في حجرة النوم .. أنه

ينصرون أنه أعطاني بقدر ما أعطيته .. متعنى بنفسه كما تمتع بي ..

وقال رفعت في صوت جاد وقد كف عن الضحك ..

— سأعوضك من بخل فلاديمير ولكن أحرصى عليه .. أنه

يعنى ..

واستمرت علاقته بالروس قوية وطيدة .. أنه رجل الروس

الأول .. وذلك دون أن يفرط أو يستهين بعلاقته بلندن .. لقد

عادت العلاقات الدبلوماسية وفتحت السفارة البريطانية وعاد إليها

نفس موظفيها أو أغلبهم .. ومن بينهم صديقه مالمو كولم .. ان كل كلمة تصل اليه يبلغها مالمو كولم .. وبعضها يبلغها هي نفسها لموسكو .. أنه عبقري .. أعجوبة الاتصالات الدولية ..

واستعداد رفعت الذكرى التي تتردد كثيرا على عقله .. ذكرى اليوم الذي فوجيء فيه بقرار من موسكو بنقل كثير من موظفي السفارة الروسية في مصر .. أن موسكو لم تعلن أن السبب في نقلهم هو تقاضيهم الرشاوى بل أنها لم تعاقب أحداهم بل اكتفت بنقلهم الى وظائف داخل موسكو أو في سفارات أخرى .. وهو قد عرف السبب الحقيقي لهذا النقل .. واجتار في تشكيل أسلوبا جديدا معهم وعلى قدر همه فرح بأن صديقه فلاديمير قد قرر النقل .. لقد كان جريئا تجاه شهواته .. وقد استراح منه .. ثم فوجيء باستدعائه إلى ادارة المخابرات .. وقال له المدير من خلال ابتسامة واسعة بعد أن استقبله بترحاب كبير :

— انك متهم بأنك تدفع رشاوى لرجال السفارة ..

وكان رفعت صريحا .. انه يعلم أن العلاقات بين مصر وروسيا رغم كل مظاهر التحالف والصداقة يجري فيها ليار نحى من الحقد

والغيظ وعدم الاطمئنان المتبادل .. لذلك فهو لا يهتم أن يكون صريحا مادام لا يقوم بعمليات ضاء أو تعرقل خط الثورة .. قال :

— انى أدفع عمولات كالتى تدفع في كل العمليات مع كل الدول .. ولا تصدقوا أن روسيا ترفض العمولات كل ما هناك أن القانون يسميها هناك رشاوى ..

وقال مدير المخابرات في هدوء :

— أتنا نرى أن تتوقف عن التعامل معهم إلى أن يتضح موقفهم بالنسبة لك .. فهناك ضجة خفية حولك هذه الأيام ..

وامتنع رفعت فعلا عن الاتصال بأصدقائه في السفارة أو بأصدقائه في موسكو بل أنه أوقف حتى العمليات التي لم تتم .. ومن يدري .. ربما كانوا يبحثون عن وسيط آخر يتولى عملياتهم .. لا يهتم .. مهما أبعدوه فإن ما جمعه من التعامل معهم يكفيه ويستطيع أن يعود ويفتح أبوابا جديدة للتعامل مع لندن ..

لم تنقض أسابيع حتى بدأ رجال السفارة الجدد يتصلون به .. ان موسكو لم تتخل عنه .. انها لا يمكن أن تتخل عن صديق سبق أن تعاملت معه ونجح في تعامله معها .. وفرح رفعت بعودة موسكو

اليه .. ولعل رجالها الجدد لن يتعجبوا بتقاضى العمولات .. أى الرشاوى .. ولكن أبدا .. لم يتغير شيء .. أن الجدد يأخذون حتى وهم فى انتظار نقلهم إلى بلاد أخرى ..

وكانت الأزمات قد بدأت تشتد بين مصر وروسيا .. دائما نفس الأزمات .. أزمات حول التسليح .. نفس الأزمات التى سبق أن فصلت بين مصر وأمريكا .. وبذل رفعت جهودات كثيرة فى محاولة زج نفسه فى حل هذه الأزمة .. وهو دائما حريص على أن يثبت أنه بجانب المطالب المصرية .. ولكن لا أمل .. إن روسيا لا تتعامل فى السلاح كمجرد عملية تجارية تعود عليها ببربح ضخمة هائل .. أنها أولا عملية سياسية .. والسياسة الروسية لا تسمح إلا باعطاء مصر هذا النوع من السلاح ..

وحدث أن عرف رفعت أن مصر تطلب استيراد أنواعا معينة من معدات الرادار .. وروسيا لا ترفض صراحة ولكنها تماطل بمماطلة إلى اليأس .. وبجهود رفعت التى يبذلها فى دراسة كل عملية اكتشف أن نفس معدات الرادار تصنع فى بريطانيا .. ليست هى بالذات ولكنها تقوم بنفس المهمة وربما على مستوى أفضل .. واعتمد على جرأته وعرض على القيادة أن يستورد لها هذه المعدات من لندن ..

وترددت القيادة طويلا اعتمادا على روسيا ولكن أخيرا بعد أن اشتد بها اليأس وافقت .. ووافقت لندن بسرعة على تصدير هذا السلاح إلى مصر .. ان السياسة عندهم تقدر قيمة الأرباح التى تعود على الدولة .. ولاشك أنها سياسة تؤيد اشتراك بريطانيا مع روسيا فى تزويد السلاح إلى مصر .. إن السياسة تريد أن تعود بريطانيا إلى مكانها القديم فى مصر ..

وحرص رفعت على أن يبلغ الخبر لموسكو بطريقة الخاصة .. أنه سيستورد لمصر معدات رادار من لندن .. أنه يريد أن يطمئن إلى موقف موسكو .. وقد اطمأن .. أن موسكو لم تعترض ولم تتدخل لدى القيادة العليا .. بل ربما كانت تعرف بالخبر قبل أن يصلها منه .. سياسة غريبة .. كيف ترفض موسكو تصدير هذا السلاح إلى مصر بينما تسكت على أن تقوم مصر على استيراده من لندن ..

وتمت الصفقة ..

وفرح بها رفعت اليومى كما لم يفرح من قبل بأى عملية حققها .. أنها أول صفقة سلاح يحققها وأرباحها هائلة توازى أضعاف أضعاف أرباحه من العمليات التى كان يحصر نشاطه فيها .. يجب

أن يتفرغ منذ الآن لصفقات السلاح .. ثم أنها أول صفقة لاستيراد
السلاح من خارج روسيا لعل رفعت هو صاحب الفضل في أسس
المبدأ الذي شاد بمصر بعد ذلك وأصبح شعارا لمصر .. مبدأ حرية
استيراد السلاح وتعديله مصادره ..

والأزمات تشتد بين مصر وروسيا ..

وقفزت خواطر رفعت البيومي فجاءه إلى أبعد مما كانت فيه ..

لقد عاد برعى محمود إلى مصر بعد أن غاب عنها وعنه أكثر
من عشر سنوات ..

وبدأت معركة الكبرى ..

(٨)

لم تكن الأحداث التي وقعت عام ٦٧ وانتهت بمصر إلى الهزيمة
العسكرية لها أثر في حياة رفعت البيومي .. لم يكن هناك ما يربطه
بهذه الأحداث أو بهذه الهزيمة من قريب أو بعيد .. ولم يكن يعتمد
على شلة عبد الحكيم عامر حتى يفقد شيئا بفقدانه .. صحيح أن
الهزيمة صدمته كمصري لا يستطيع أن يتجرد من مصريته خصوصا
وأنه كان يجارى كل الأكاذيب التي كانت تعلن قبل المعركة رغم
أنه كان يعلم أن بعضها هي فعلا أكاذيب إلا أنه لم يكن يتصور أن
تصل النكبة إلى هذا الحد .. بل أنه حتى بعد أن بدأت إسرائيل
بالضربة الأولى وكانت ضربة ساحقة ظل معتقدا أن مصر ستضرب
الضربة الثانية أعنف وأشد حقا .. ولكن خاب أمله .. لا يهم ..
المهم أنه لا يحمل أى مسئولية من مسئوليات هذه الأحداث .. وإذا

كانت الرئاسة تعرف أنه لا يزال رجل الانجليز في مصر فان
الانجليز أيضاً لم يكن لهم دخل في هذه الأحداث .. ثم أن الأزمات
مهما اشتدت بين مصر وروسيا وخصوصاً بعد المعركة فان روسيا
تعتقد أنه مجرد رجل أعمال رغم العمليات التي كان ينقلها اليه على
سبيل الرشوة .. ولا يمكن أن تحمله أى مسئولية في هذه الأزمات
وتحرره من التعامل معها .. ثم أن الرئاسة المصرية تعلم أنه ليس
ماركسيا وليس من رجال روسيا في مصر رغم تعامله معها فلا يمكن
أن تفكر في المساس به .. ان رجل الأعمال العبقري يستطيع أن
ينجاري الهزيمة كما ينجاري الانتصار دون أن يمس شخصه أو أعماله
أى شىء .. ولا شك أنه عبقري ..

وقد اتسعت أعماله بعد الهزيمة ..

إن مصر أصبحت أكثر حاجة إلى روسيا ليس فقط في استيراد
السلاح ولكن في استيراد مطالب الحياة .. كاستيراد المواد الغذائية
والملبوسات وإتمام المشروعات التي لم تتم .. وهو لا يتعامل مع
روسيا في عمليات استيراد السلاح ولكنه يتعامل معها في كل
عمليات استيراد مطالب الحياة .. اتسعت عملياته حتى أصبح وكأنه
يسيطر على كل مصر .. وأكثر من ذلك .. فقد كان نجاحه في
إتمام صفقة استيراد معدات الرادار من بريطانيا دافعا لأن تبدأ
القيادة في التفكير في استيراد أنواع أخرى من السلاح من خارج

روسيا .. وقد عرضت عليه هذه الأنواع واختار منها عملية استيراد
طائرات الميراج من فرنسا .. أنها صفقة ضخمة .. ملايين الملايين ..
وربما أستطاع بعدها أن يتفرغ للتخصص في استيراد السلاح .. وقد
قضى شهورا يبذل مجهودا ينهكه ويسافر بين كل حين وآخر إلى
باريس لإتمام الصفقة .. ولكنه لم يستطع إتمامها .. كانت العلاقات
الجديدة التي قامت بين عبدالناصر والدول العربية قد دفعت بعض
هذه الدول إلى امداد مصر بهذه الطائرات .. لاهم .. هناك أنواع
أخرى من السلاح .. واستيراد السلاح أوسع حتى أصبح وكأنه
استيراد الحياة ..

وما أزعج رفعت أيامها أنه عرف من خلال السرايب
التحتية أن هناك اتصالات بدأت الرئاسة تقوم بها مع برعى محمود
في أمريكا .. هل يمكن أن يعود برعى إلى مصر .. أنه لو عاد
لفضى عليه وأطاح به من فوق عرشه الذي يتباهى به منذ سنوات ..
فيرعى في هذه الأيام ووسط هذه الظروف يعتبر الأقوى .. أنه
صديق أمريكا والرئاسة بدأت تؤمن بأنها لا تستطيع أن تواجه
مشاكلها وهي تعادى أمريكا .. وقد يستطيع برعى أن يعود بأمريكا
إلى مصر .. ثم أنه على علاقات قوية مع كل البلاد العربية الصديقة
لأمريكا والتي أصبحت مصر تنودد اليها وتتقارب منها إلى حد تقبيل
الأيادي .. وسيكون برعى قوة في تأكيد واستغلال هذه العلاقات ..
ومن يدري ربما كان له دخل في التأثير على هذه الدول العربية في

إمداد مصر ببعض الأسلحة والطائرات .. ان برعى يتدخل باسم أمريكا وهذه الدول لا يمكن أن تتصرف دون موافقة أمريكا .. وقد حاول رفعت كثيرا أن يتقرب ويتعامل مع هذه الدول العربية .. ولكنه لم يستطع أبدا أن يصل إلى مثل قوة برعى .. ربما لأنه ليس محسوبا أنه من رجال أمريكا ..

وقد حاول رفعت أن يخفف من جزعه وانزعاجه فاقنع نفسه بأن الإدارة الأمريكية لا يمكن أن تعود للتعامل مع عبدالناصر .. هذه هي سياسة الطبيعة الأمريكية .. إذا وصلت إلى قمة اليأس ترفض أن تعود إلى تقدير الأمل .. ولاشك أن برعى يقدر ذلك .. فإذا كانت أمريكا ترفض العودة إلى مصر فهو نفسه لن يعود ..

إلى أن وقعت فوق رأس رفعت المصيبة الكبرى ..

ذهب جمال عبدالناصر .. مات ..

وأحس رفعت اليوم في نفس اللحظه التي سمع فيها خبر موت عبدالناصر بأنه هو شخصيا انزع من مكانه وأصبح معلقا في الهواء ولا يدري متى يعود ويستقر على الأرض .. ولا أين يعود ويستقر ..

انه منذ بداية الثورة وقد ربط كل حياته بعبد الناصر .. بقوة الحاكم .. وكان من الذكاء بحيث يقدر أنه لن تقوم في الثورة كلها قوة بجانب قوة عبدالناصر .. سيبقى هو دائما القوة الوحيدة ..

وكان بالنسبة للآخرين يسائر من يسائرهم عبدالناصر ويقرهم ويعتقد عليهم .. ويتعد عن كل من يغضب عليهم عبدالناصر ويعتد عليهم .. ولكنه كان دائما حريصا على ألا يدخل في أي معركة يمكن أن يرميه فيها ارتياحه بعبد الناصر .. لقد تباعد عن عبداللطيف البغدادي وذكريا محيي الدين وكمال الدين حسين و .. وكل من ابتعدوا عن عبدالناصر .. رغم صلته القوية التي كانت بينه وبينهم .. ورغم أنه كان حريصا على مرضاتهم واكتسابهم .. ولكن كلهم لم يغضبوا عليه لتباعده ولم يعلنوه بنقمتهم واحتقارهم له .. لعلمهم يعتبرونه كأنه ليس صاحب رأى ولا صاحب موقف .. إنه رجل أعمال .. خادم من يعمل معه .. وربما عاد اليهم وبذل ما كان يبذله في مرضاتهم إذا عادوا هم إلى سلطاتهم واحتاجوا اليه في أعمال .. حتى أيام عبدالحكيم عامر وإلى أن بدأت الأزمة الخطيرة بين رئاسة الحكم ورئاسة الجيش .. ظل محتفظا بأطمشان عبدالحكيم اليه أو على الأقل بوقوفه خارج المعركة رغم أنه كان يبذل كل طاقته لتأييد عبدالناصر حتى ينتصر على عبدالحكيم .. طاقته التي يستمدّها من الانجليز ومن الروس ومن قوته كرجل أعمال يستطيع أن يقدم كل أنواع الخدمات .. أن عبدالناصر قوة مهيمنة على أدق تفاصيل ما يجري في مصر .. كأنه أصبح الأكسجين الذي تنفس به مصر .. وهو يذكر صديقه الذي كان مديرا لمكتب عبدالناصر وقفز به عبدالناصر حتى عينه رئيسا للوزراء .. وفي يوم

التي به و طال بينهما النقاش حول إحدى العمليات فقال له الصديق وهو يتهدد .. « هل تعتقد أني رئيس للوزراء .. أبدا .. إنني لازلت مدير مكتب الرئيس » .. وهكذا كان كل من يتحملون المسؤولية في أيام عبدالناصر .. لذلك فهو لا يمكن أن يعيش بعيدا عن عبدالناصر .. وكان عبدالناصر نفسه يقدر فيه كل ذلك فظل محتفظا به يقربه اليه حتى آخر أيامه .

والآن ..

كيف يرسم علاقاته واتصالاته بالرئيس الجديد ..

أنه يعرف أنور السادات معرفة شخصية منذ بداية الثورة ولكنه في الواقع لم يكن يركز على هذه المعرفة ويحيطها بشيء من الاهتمام أو التعال الذي كان يبذله لباقي المحيطين بعبد الناصر .. لم يلهمه ذكائه بأن السادات يمكن أن يصل في يوم من الأيام إلى كل هذه القوة .. ربما لأن عبدالناصر نفسه كان يعامل السادات معاملة فاتره ولا يقدر له شخصية قوية يمكن أن يعتمد عليها ويتفرد بها عن باقي الشخصيات .. كل شيء حدث نتيجة ظروف ومفاجئات لم يستطع ذكاء رفعت أن يلاحظها .. وقد حاول منذ البداية أن يضع نفسه بالنسبة للحكم الجديد في نفس المكانة التي عاش بها خلال الحكم القديم .. ولكن مستحيل ..

ان كل شيء يتغير ..

وهذا مقروض ..

أنه لا يمكن أن ينتظر أن تكون طبيعة شخصية أنور السادات هي نفس طبيعة جمال عبدالناصر .. ولانفس العقلية .. ولا نفس أسلوب الحكم ..

وقد استقبله أنور السادات بعد أن تولى الحكم بترحاب كبير .. وبدى كأنه قرر الاعتماد عليه كما كان عبدالناصر يعتمد عليه .. ولكن رفعت لم يطمئن إلى هذا الترحاب ولم يصدق نفسه وهو يتخيل أن الحكم سيستمر في الاعتماد عليه .. وقد فوجيء بسرعة أن الحكم بدأ يعتمد على غيره في نفس الأعمال التي كان يقوم هو بها .. ويتفرد بها .. سحب منه السادات حق الاحتكار والانفراد بهذه الأعمال .. وهل لم يعد في حاجة إلى هذه المعلومات الهامة التي تعود أن يقدمها للهيئة الحاكمة حتى تصل إلى الحاكم .. لعل الشخصيات الجديدة التي أصبحت تحيط بالحاكم هي التي دفعت إلى محاولة الاعتماد على غير رفعت .. أو على الأقل ألا يعتمد على رفعت وحده .. وقد حاول أن يمد اتصالاته بهذه الشخصيات الجديدة ورغم أنه أحس أنه استطاع أن يكتسب بعضها إلا أنه لا يستطيع أن يعود بهم إلى الاطمئنان الذي كان يعيش أيام عبدالناصر .. أنها شخصيات لا يمكن أن تكون لها قيمة إلا من داخل قيمة السادات .. ولعلهم يعلمون أنه ليس له هذه القيمة العظمى في تقدير السادات كما كانت له في تقدير عبدالناصر .. والفرق كبير .. ان الحاكم

لا يستطيع أن يعتمد الا على من له فضل عليهم .. وقد كان عبدالناصر صاحب فضل عليه .. هو الذى شمله برعاية الثورة .. وهو الذى سكت على صداقته للانجليز .. هو الذى فتح له كل هذه الحرية التى حقق بها مشروعاته .. وهو الذى كلفه بمهام كثيرة رفعت من مركزه وقيمته فى البلد وبين كل الدول الأجنبية التى يتعامل معها .. فإذا يستطيع السادات أن يقدم له من فضل حتى يأمره بفضله عليه .. لا شيء .. أن كل ما يستطيع أن يقدمه هو الاستمرار فيما كان يقدمه له عبدالناصر .. أى سيقى السادات دائماً معقداً يعتبر نفسه أنه ليس صاحب فضل على رفعت .. وسيقى رفعت فى نظره كأنه رجل عبدالناصر .. والسادات معلوم .. إن من طبيعة الحاكم أن يبحث عن يأسره بفضله عليهم ..

كان كل ذلك يعصف بخواطر رفعت اليومى ويحاول أن يتسم ببلده وبين نفسه ابتسامته المغرورة حتى يخفف من جرحه ويستعيد اطمئنانه .. وهو يستطيع أن يطمئن .. أن روسيا لاتزال فى مصر .. وروسيا لم يهتز اعتمادها عليه .. ويلاحظ أن أصدقاءه فى السفارة بدأوا يترددون عليه أكثر ويكثر من أسئلتهم التى يوجهونها اليه وكأنهم أصبحوا ضرجاء من اعتبارهم مصادر معلومات لا مجرد رجل أعمال .. ومادام الروس يعتمدون عليه فلن يفكر الحكيم فى الاستغناء عنه .. وهذه الشخصيات التى أثوابه وعهدها اليهم ببعض أعماله لا تساوى شيئاً .. أنه مع الأيام يستطيع أن يقضى

عليهم ويتخلص منهم ويعود إلى احتكاره لكل شيء .. لكل عملية ..

إلى أن فوجيء بظرد الروس من مصر .. طرد القوات السوفيتية والخبراء السوفيت .. أنه لم يفتنع أن يحصل على أى معلومات مسبقة يبلغ بها الروس والانجليز رغم اتصالاته متى كان قد وصل اليها مع الكثيرين من الشخصيات الحاكمة .. ربما كانوا هم أيضاً لم يعلموا بشيء مقدماً .. وانفرد بالقرار أنور السادات لنفسه إلى أن فاجأه به بدليل أن بعض الوزراء قدموا استقلالهم لأنهم لم يتحملوا المفاجأة ..

وأحسن رفعت بالضعف أمام أصدقاءه الروس .. أنه لم يخدمهم بخبر طردهم مقدماً حتى يستعدوا له .. وأحسن كأنهم بدأوا ينظرون اليه كأنه رجل أعمال عادى ليس لديه ما يمكن أن يدفعهم إلى الاعتماد عليه نظير تسهيل عملياته .. بل أنه أحسن كأنه أصبح ضعيفاً بالروس .. لم تعد لهم القوة التى يمكنه الاعتماد عليها .. ربما كان من الأفضل له أن يبدأ فى التباعد عنهم ..

وقد بدأ يحس أكثر أنه أصبح هو نفسه مبعداً عن الحكم .. أن أصدقاءه يستقبلونه فى فتور .. ويعتمدون أن يكون الحديث معه عادياً لا يكشف عن أى سر من الأسرار رغم استمرار تحايله حتى يكشف عن أى سر .. وهو يعلم أن الحرب ستقوم .. مصر ستهاجم اسرائيل .. ولكنه لا يعلم من أكثر مما يقرأه فى الصحف .. صحيح

أنه يستطيع الحصول على بعض التفاصيل .. ولكنها تفاصيل لا تؤكد
له حتى ستقوم هذه الحرب ولا كيف ستبدأ .. ثم لا أحد مع
المسؤولين يتصل به ليشارك في تغطية مطالب هذه الحرب ولا
باستيراد المواد الغذائية التي يمكن أن تؤمن بطون مصر أيام الحرب
إذا كانوا لا يريدون تكلفته بالتدخل لاستيراد أسلحة .. لقد فقد
كل ما كان له من مكانة ومثوليات أيام عبد الناصر ..

وقرأ أخبار حرب ٧٣ في الصحف وزاد عليها كلمات من
مصادر أخباره .. كلمات لا تلبث أن تكون على أرصفة الشوارع
ولا ترتفع إلى قيمة الأسرار ..

إلى أن فوجيء المفاجأة الكبرى ..

عاد برعى محمود إلى مصر ..

عادت أمريكا ..

وقد عاد برعى وكأنه يحمل على رأسه صولجان النصر .. لقد
انتصر فعلا .. ومن يدري ربما كان يعمل مع أمريكا في تحقيق
هزيمة ٦٧ ولا يزال يعمل معها في كل الاتصالات التي أعقبت
حرب ٧٣ .. وعقب وصوله بساعات صدر قرار بإلغاء الحراسة
التي كانت مفروضة عليه .. وردت له الحكومة كل ممتلكاته وكل
مشروعاته وكل مكاتبه .. والممتلكات التي كانت الحكومة قد
تصرفتها فيها بالبيع ولم تستطع أن تردها إليه دفعت له تعويضاً عنها ..

دفعت بسخاء عجيب .. ان قطعة الأرض التي كان يملكها والتي
اشتراها رفعت من الحراسة ولم يدفع فيها أكثر من عشرة آلاف
جنيه دفعت له الحكومة تعويضاً عنها مليون جنيه .. سخاء عجيب ..
كأنها كانت تدفع لأمريكا لا لبرعى ..

ومنذ وصل ورفعت يعلم أنه على اتصال مباشر مستمر مع
الرئاسة .. اتصال لا ينقطع يوماً ولا ساعة .. وفي الوقت نفسه بدأ
فوراً في الإعداد لمشروعاته .. لقد دعا إلى مصر فريقاً من كبار
الممولين الأمريكيين وأعد لهم لقاءات مع المسؤولين قدموا خلالها
مشروعات برؤوس أموال تصل إلى ملايين الملايين .. ورفعت
مذهول حائر أمام طغيان برعى .. ولا شك أنه بعد أن يجد الوقت
الكافي سيتفرغ للقضاء عليه .. سيتقم لنفسه .. سيدخله السجن أو
يطرده كما سبق وتسبب هو في سجنه وطرده ..

ولعل الكارثة قضت على ذكاء رفعت .. فهو لا يستطيع أن
يعتمد على عبقريته في إيجاد الوسيلة التي يواجه بها طغيان برعى ..
ووجد نفسه يعود إلى كلام سبق أن اعتمد عليه مجده .. بدأ يردد
في كل مناسبة تجمعه بأحد المسؤولين أنه متأكد من أن أمريكا لا يمكن
أن تعتمد على أنور السادات .. لا يهتمها أن تغير رئيس برئيس ..
أنها تريد أن تغير نظام الحكم كله ليكون قريباً من النظام الأمريكي
والنظام الأمريكي يقوم على نوع من الديمقراطية وتعدد الأحزاب ..
والدليل أن رجلها برعى محمود بدأ يتصل بالوفديين ويلتقي بفؤاد

سراج الدين .. بل انه يتصل بشخصيات سياسية قديمة لم يكن لها صلة بالثورة وليس لها علاقة بالنظام القائم ..

ولكنه لم يحس بأثر لما يردده على مصير برعى محمود .. والأعجب من ذلك رغم أن ما كان يردده كان فيه كثير من المبالغة وكثير من المعلومات المفتعلة المقصود بها التوقيع بين الحكم وبرعى .. رغم ذلك وجد أن الحكم نفسه يتجه نفس الاتجاه الذى كان يحذر منه فيما يردده .. أن الرئاسة بدأت تتصل فعلا بالوفديين وبالشخصيات السياسية القديمة .. وبدأت تعلن عن الديمقراطية وتمهد لنظام تعدد الأحزاب .. غريبة .. لعله لم يفقد ذكائه وأن ما كان يردده للوقية لم يكن سوى تعبير عن الواقع المنتظر الذى ينبض به ذكاؤه .. واقع عودة أمريكا إلى مصر ..

وقد حاول أن يقيم اتصالات مع الأمريكان .. ولكنهم يعاملونه معاملة غريبة ليس فيها حتى مجرد التفاهة الدبلوماسية .. لقد كانوا أيام زمان يعرفون كل شيء عنه .. كانوا يعرفون أنه رجل الانجليز .. ورغم أنه كان يحس بعدم حاجتهم اليه إلا أنهم كانوا يحترمونه ويعاملونه بالمظاهر الدبلوماسية .. ولكنهم بعد أن عاينوا بصرون على تجاهله تجاهلا يحمل معنى الاحتقار .. حتى أنه لم يستطع الوصول الا إلى صغار موظفى السفارة وصغار الشخصيات التى أصبحت القاهرة تزدهم بهم ويعرف أن معظمهم نصابين جاءوا للنصب على الحكومة المصرية بعمليات زائفة ..

لماذا لا يتصل برعى محمود نفسه ..

ان برعى لا يمكن أن ينسى ما كانت عليه قيمته وقوته .. لقد كانت القيمة والقوة تعرف باسمه .. اسم رفعت البيومى .. ولاشك أن برعى وهو رجل أعمال يقدر الواقع ويعرف أن رفعت لا يزال يحتفظ ولو ببعض قيمته وقوته .. ومن شيمه رجال الأعمال أن ينسوا أو يتجاهلوا الاساءة التى تقع عليهم مادامت مصالحهم تتطلب منهم النسيان والتجاهل .. ولعله سيفتعل تجاهل اساءة رفعت له ..

ولم يكن رفعت يعرف رقم تليفون برعى الخاص المباشر ، ثم عرف أنه يغير رقم تليفونه الخاص كل يوم أو يومين تقريبا .. لقد كان جمال عبدالناصر أيضاً يغير رقم تليفونه الخاص كل يوم وأحيانا يغيره مرات من اليوم الواحد ، ولكنه كان رفعت يبلغ بهذا التغيير فوراً .. أن برعى محمود يضع نفسه فى مستوى عبدالناصر .. لا بهم ..

وكان يحاول الاتصال به عن طريق السكرتارية .. سكرتيرة وسكرتيرة برعى .. وقد مضت أيام قبل أن يستطيع أن يحدد موعد لقاء .. ولم يتحدد الموعد فوراً ولكن بعد خمسة أيام من موافقة برعى على لقائه من خلال اتصالات السكرتارية .. كأن رفعت شخص عادى ليس له أهمية تدق إلى لقائه فوراً ..

واستقبله برعى محمود في برود رغم ما كان معروفًا عنه من
المبالغة في الحاملة خلال اللقاءات .. هل تغير برعى بعد سنوات
الحرب التي قضاهما في أمريكا ، أم أنه أصبح يعتقد أن رفعت
لا يستحق حتى مجرد هذه المحاملات الكاذبة ..

وقال برعى من خلال ابتسامة ضيقة مرة ساخرة وبدون أن
يقف لاستقباله ويشير بيده في إهمال إلى المقعد المجاور ..
أهلاً .. تفضل ..

وقال رفعت وهو يتنعم ابتسامة كبيرة تقطر بكل ما فيه من
نفاق :

— إني أسف لتأخري في تهنتك بالعودة .. والواقع إني
حاولت الاتصال كثيرا لتحديد هذا الموعد ..

وقال برعى وهو يقلب في أوراق أمامه كأنه لا يحس بوجوده :
— مشغول .. الأعباء كثيرة ..

وقال رفعت في استسلام ..

— أعرف .. وقد جئت لتهنتك وفي الوقت نفسه أرد دينا لك
على .. فأنت تعلم إني أثناء غيبتك أشرت مزرعتك من الحراسة ..
كنت أعلم مدى اعتزازك واهتمامك بهذه المزرعة وقد خفت عليها
أن تبقى تحت سيطرة الحكومة فأشتريتها لأحفظها لك ..

وقال برعى دون أن ينظر إليه ..

— لقد دفعت لي البتلة ثمن هذه المزرعة ..

وقال رفعت وكأنه يتوسل :

— إن الثمن فيها كان لا يغني عن المزرعة وهي تحت أمرك ..

وقال برعى وهو يلوى شفتيه امتعاضا :

— لم أعد في حاجة إليها .. ولم تعد تصلح بعد عشر سنوات من
دخول أيدي غريبة عليها .. ومن الأجدي أن أبدأ في إقامة مزرعة
أخرى ..

ثم أخفى الورق الذي كان يشغل قراءته ومن بين يديه واستطرد
قائلا في حدة :

— اسمع ياسيد رفعت .. لن نتكلم بصراحة .. إني أعرف عنك
أكثر مما تعرف عني .. وأعرف أيضاً الأغراض التي دفعتك إلى
طلب مقابلي .. وإذا كنت ذكيا كما يقال عنك فإن ذكاؤك يجب
أن يقصر نشاطك وتحركاتك وأهدافك على شئون نفسك ولا تحاول
التعرض لي أو المساس بي .. كن في حالك واتركني في حالي ..
وليس في كل مرة تسلم الجره كما يقال ..

وقال رفعت في انبهار :

— صدقني إني لا أحاول المساس بك ..

وقاطعه برعى مختدا أكثر :

— إنك لا تزال تحاول ما كنت تحاوله أيام زمان .. وقد عرفت
أنك تقول عني أنني أدبر محاولة لقلب نظام الحكم وقاطعه رفعت
وصوته يتلجلج :

— أبدا .. لاشك أنه كلام وصلك محرفا .. و ..

— وقاطعه برعى وهو يخط على مكتبه بيده :

— لاجلوى للانكار .. إني واثق مما أقول .. وأحب أن أقول لك أنك خدمتني بما قلته عني فجرد إثارة كلامك أعطاني الفرصة لأفتح الموضوع للمناقشة بعد أن كنت مترددا في فتحه .. وحققت ما أريد .. إن أنور السادات نفسه هو الذي سيقبّل نظام الحكم وسيبيح تعدد الأحزاب ..

وقال رفعت في استجداء :

— دعني أشرح لك ماقلته و ..

وقاطعه برعى وهو يقوم واقفا وراء مكتبه :

— هذا يكنى ... مع السلامة ..

إنه يطرده ..

...

وأخرج رفعت من لدى برعى وهو في الحضيض اليأس .. وبأسه يدفع فكره إلى اتجاه جديد .. سيترك مصر كلها برعى .. يجب أن يعترف بأنه لم يعد يستطيع أن يتحداه أو يواجهه أو يتحدى شره .. وإذا كان برعى سيصبح الرجل الأوحيد في مصر فهو شخصيا لا يستطيع أن يستمر في أعماله كرجل أعمال عادى ليست له هذه القوة التي تعود عليها .. أنه لا يدري كيف يعمل دون الاستناد إلى قوة .. وقوة عظمى .. إلا إذا قبل على نفسه بأن يقوم

بعمليات بسيطة صغيرة كباقي رجال الأعمال العاديين .. وهو لا يمكن أن يحتمل أن يكون عاديا ..

ولكنه لم يترك مصر أو يهرب كما هرب برعى أيام زمان .. أنه لا يستطيع أن يستغنى عن مصر واحساسه بفرحته بنفسه وقوة شخصيته لا يمكن أن يتمنع بها الا وهو يظل من شرفة بيته على النيل ويرى شهقة كل فرد في مصر وهو يمر من أمامه في الشارع .. ثم أن أسلوب الحكم قد تغير .. لم يعد هناك هذه الرهبة أو هذا الخوف الذي كان يمتلئ قلب كل مصرى بحس أنه مهددا بغضب الحاكم .. لن يحسه أحد ولن يوجه إليه أى اتهام .. ان الحاكم وكل من حوله يعلمون أنه يحزن كثير من الأسرار التي تمسهم .. أسرار جمعها أيام عبدالناصر ولا يزال محتفظا بها .. وهم لن يمسونه لا حيا فيه واحتراما له ولا حتى للفقه به ولكن خوفا من أن يرد عليهم بإذاعة هذه الأسرار ..

وكل ما يجب أن يفعله في هذا الطريق الجديد الذي طرأ على خطاه .. هو أن ينقل مركز أعماله من القاهرة إلى لندن .. أنه لا يزال محتفظا بقيمته وقوته لدى الانجليز .. ولا يزالون محتفظين به كرجلهم الأول في المنطقة ..

وبدأ يتخذ كثير من الاجراءات لتحويل مركز نشاطه ومركز رعيته إلى لندن .. ثم سافر إلى هناك .. ان الانجليز أوفياء فعلا .. انهم يستقبلونه كأنه رجل عبدالناصر وكأن عبدالناصر لا يزال على

قيد الحياة بحكم مصر .. ووجد كل الأبواب مفتوحة .. ووجد العمليات تمر بسهولة .. حتى في لندن ومع وجود كل هذه القوانين المحترمة هناك فرق كبير بين السهل والصعب .. بل أنه بدأ هناك بعملية كان يقدر أرباحها التي تعود إليه خمسين ألفا من الجنيهات الأسترلينية فإذا بها تصل إلى مائة ألف .. وكأنهم في لندن يدفعون له ثمن كل كلمة ينطق بها أمامهم ..

وقد بدأ يتردد على لندن كثيرا ولكنه لم يكن يستطيع الإقامة فيها إلا أسبوعا أو أسبوعين وان كان قد اضطر مرة أن يقيم ثلاثة شهور تحت ضغط ومطالب العمل .. وكان يعود بشوق إلى مصر .. وإلى بيته الموثث على الطراز الإنجليزي .. أنه وهو في مصر يحس أن لندن بين يديه وباريس وبيون وكل بلاد الدنيا .. أن مصر هي فعلا أم الدنيا ..

وكان مركز أعماله في لندن يلح عليه أن يقوم بعمليات في البلاد العربية .. أنها السوق الأوقع والأسهل .. ولكن معظم البلاد العربية لا تزال ترفضه وتحترقه ولعلها تنتظر موته كما مات عبد الناصر .. ولكن .. هناك دولة عربية لا يمكن أن ترفضه ليبيا .. لقد كان منذ قامت الثورة الليبية ونظام الحكم الجديد يعتبر كأنه الناطق باسمها أمام جمال عبد الناصر .. بل أنهم كانوا يعتبرونه كأنه هو شخصيا عبد الناصر .. أو كأنه شعار من شعارات عبد الناصر وليبيا لا تزال تعيش حياة عبد الناصر ولا يمكن أن ترفضه أو تصده .. وقد استقبل هناك فعلا كأنه شعار عبد الناصر وتمت هناك أكبر

عملية أقدم عليها .. عملية قبلت ليبيا تقديرها بستين مليون دولار ودخل جيبه منها ثلاثين مليونا .. ربحا صافيا .. لم يكن يحلم بكل هذا .. ان العباقرة يصلون دائما إلى أكثر مما يحلمون به ويقدرونه لأنفسهم ..

وقد استمر تعامله مع ليبيا وامتد إلى بلاد عربية أخرى استطاع أن يصل إليها .. لم يكن جمع الملايين هو الذي يدفعه إلى كل هذا التوقع .. ولكنها لذة العمل ولذة الاحساس بالقوة .. وكان يعود إلى مصر وهو يحس أنه أقوى .. أقوى حتى من الاحتياج إلى الحاكم .. وبدأ يقدر برعي محمود كأنه تحتقره .. ان برعي عبد الحاكم أما هو فقد أصبح فوق كل الحكام وأقوى .. وبلغ به الاحساس بالقوة إلى حد أنه بدأ يستهين بالحاكم نفسه .. وبدأ يتكلم كثيرا ضد هذا الحاكم ويسخفه ويخذر من كل خطوة يخطوها .. بل أنه بدأ يجمع حوله الثوار القدامى من الماركسيين ومن الذين كانوا متجاوبين ومسؤولين أيام عبد الناصر .. وكان يحادثهم بصراحته كأنه يحرضهم على الثورة .. وفي الوقت نفسه يرسل المعلومات المطولة إلى الإنجليز وهو يعلم أنها ستصل إلى الأمريكان .. معلومات يحاول أن يهد بها قوة الحاكم .. أنه ليس قويا في بلده ولدى شعبه .. وهو لا يدري كيف يمكن أن تتحقق الثورة ولا كيف يمكن أن يتخلص من هذا الحاكم .. كل ما يدريه هو أنه بكرهه ولا يريد ..

...

وكان رفعت البيومي مستلقيا على الأريكة المريحة في صالون بيته الفخم مستطردا في ذكرياته وفي يده كأس البيرمنت من عصير النعناع وبين أصبعه سيجار مونت كريستو الفخم عندما دخل إليه «البتلر» كبير الخدم يحمل عدة التليفون .. أن لندن تطلبه .. وأخذ رفعت سماعة التليفون واستمع قليلا ثم قال في صوت حاسم :

— لا .. لا .. حول من الرصيد خمسين مليون استرليني ولا تهك الأوراق ..

ثم ألقى سماعة التليفون وهو يلوى شفثيه امتعاضا ..

أنه لم يتعود أبدا على الأوراق لاتمام عملياته يكفي الاتصالات .. وبعد قليل سمع أجراس الباب الرئيسي للشقة ترن .. وقبل أن يدخل البتلر ليلغه بمن القادم ، فوجيء باثنين من ضباط البوليس يدخلون إليه وحوله أربعة من الرجال في زي مدني لاشك أنهم من رجال المخابرات وخلفهم البتلر يتبعهم في هدوء .. وقام رفعت واقفا منطورا بعد أن ألقى الكأس والسيجار وهو ينظر إليهم في دهشة :

وقال أحد الضباط في أدب :

— هل تسمح سيادتكم بأن تصحبنا ..

وقال رفعت وهو يبذل كل طاقته لينامسك :

— هل أمر بالقبض على .. هل أصحبكم إلى السجن ؟

وقال الضابط مبتسما في أدب :

— ربما كانت هناك مجرد أسئلة ؟

وقال رفعت وهو يحاول أن يخفي ارتعاشه :

— كن صريحا معي .. ليس الوقت مناسبا لتوجيه أسئلة

هل أحل معي حقبة للملابس ؟

وقال الضابط من خلال ابتسامته :

— يستحسن من باب الاحتياط ..

وقال رفعت وعيناه تبرقان بريق الأمل والخوف :

— هل تسمح لي بأن أتحدث في التليفون ..

وقال الضابط في أدب :

— تفضل ..

وأمسك رفعت بالتليفون وأدار رقبا ويده ترتعش .. أنه يطلب عبدالله مجيب .. أنه أقرب المقربين إلى الحاكم .. وكان قد استطاع أن يفتعل صداقة شخصية معه وأدخله شريكا معه في إحدى العمليات التي تتم في لندن .. كان يعتمد عليه في جمع كثير من المعلومات وأيضا في تأكيد الاطمئنان على نفسه .. ولكن عبدالله مجيب لم يرد عليه في التليفون .. رد الخادم معتذرا بأنه ليس موجودا .. كيف لا يكون موجودا والساعة بلغت الواحدة بعد منتصف الليل .. لعله كان يعلم بخبر القبض عليه ويهرب منه .. وابتسم ابتسامة مرقة .. إنه لا يستطيع أن يلومه .. انه هو نفسه كان يهرب من مواجهة عائلات أصدقائه الذين يعتقلون وكان يؤمن أن ليس من مصلحته أن يعارض قرارا يتخذه الرئيس مادام قد اتخذ ..

والتفت إلى الضابط المؤدب المهذب قائلاً : ..

هل أمتطيع أن أضع ثيابي وأعد حقيبتي ..

وقال الضابط بسرعة :

— تفصل سيادتك ..

وقام إلى داخل البيت ولاحظ أن الضابط الآخر يتبعه ومعه

أثنين من رجاله .. لقد اتجهوا وربطوا أمام باب المطبخ خوفاً من

أن يهرب منهم ..

ودخل غرفة النوم وزوجته آمال لاتزال نائمة .. لقد تعودت

منذ أيام أن تنام وتتركه وحده ساهراً مع ذكرياته .. وأمسك

بآلة التليفون وأعاد طلب عبدالله مجيب وقال للخادم عندما رده عليه :

— أسأل سيدك إذا كان عاد إلى البيت أو لم يعد ..

وقال الخادم في أدب :

— لحظة واحدة ..

ثم عاد بسرعة وقال في التليفون :

— لم يعد سعادة البية بعد ..

والتي سماعة التليفون وبين شفثيه ابتسامة تقطر بالمرارة .. لقد

أعاد الاتصال به كأنه يحاول أن يثبت عليه تهريبه منه ولكنه في

الواقع كان متشبثاً بالامل .. أنه أقوى من يعرفهم ويمكن أن يعتمد

عليه في مثل هذه المصيبة ..

وكانت زوجته آمال قد بدأت تستيقظ على سماع صوته وقال

لها وقد بدأ يبدل ملابسه :

— أعدى لي حقيرة ملابس كاملة ..

وقالت في دهشة :

— لماذا ؟

وقال من خلال ابتسامة ساخرة :

— سأبيت الليلة خارج البيت ..

وقفزت آمال من فوق الفراش قائلة :

— ماذا تقصد ؟

وبدأ يقول لها ما يجري في كلمات مختصرة وهي تردد ..

لا يمكن .. مستحيل .. مستحيل .. ثم وضعت على كتفها الروب

دي شامبر وهمت أن تخرج إليهم ولكنه أمسك بها قائلاً في هدوء :

— لا تخرجي إليهم .. أعدى الحقيرة ..

واستسلمت وهي لاتكف عن الكلام وقد بدأت الدموع تطل

من عينيها .. بينما هو يبدل ملابسه .. لقد اختار إحدى البدل

المتواضعة التي تعود أن يلبسها أمام أصدقائه من الطبقة العادية ..

واختار رباط عنق قديم ليس فيه هذه اللمعة والفخامة التي أصبح

يختار بها أربطة العنق .. ثم بدأ يراجع ما تضعه زوجته في الحقيرة ..

ورفع منها عدة التواليت الفخمة التي تعود أن يصحبها في السفريات

ووضع بدلاً منها مجرد مشط وعدة حلاقة متناثرة .. كما أتى

بالثياب الفخمة التي وضعتها زوجته ووضع بدلاً منها ثياب

متواضعة .. وكان حريصاً على مراجعة كل أنواع الأدوية التي

يعتمد عليها في الاحتفاظ بصحته .. كل ذلك وهو يلقى على زوجته تعليمات بما يجب أن تفعله أثناء غيبته .. بمن تتصل وكيف تتصل .. انها المرة الأولى التي يدخل فيها السجن ولكنه يستطيع أن يتصور ببساطة حياة المساجين ومتطلباتهم .. ان كثير من أصدقائه كانوا قد دخلوا السجن وخرجوا يحكون له .. ولا يدري ماذا سيكون نصيبه من كل ما سمعه .. هل يعذبونه ..

وخرج إلى رجال البوليس وزوجته وراءه تصيح فيهم من خلال دموعها .. هل تعلمون من تقبضون عليه .. قولوا لأسيادكم الذين يصدرون الأوامر انهم مجانين ..

ورفعت ينظر اليها في لوم ورجاء ويحاول أن يسكنها .. ثم تقف عيناه على رئيس الخدم وهو واقف وراءهم يحمل لهم الحقيبة .. وهو هادىء بارد ولا ينطق بكلمة .. وبدأ الشك يملأ فكره .. هل هو منهم .. لقد مضى عليه في خدمته ثلاثة سنوات دون أن يبدو عليه أو منه أى شئ .. ولكن من يدري .. ان المخابرات تضع في كل بيت شخصية مهمة خادماً أميناً ..

وترددت خطواته كأنه بهم أن يعود إلى الداخل .. كان قد قرر ألا يوقظ أولاده ليودعهم .. ولكنه يحس الآن أنه يريد أن يراهم .. يملأ عينيه بهم قبل أن يتركهم ليغيب عنهم .. ولكن لا .. انه لا يحتمل أن يروه مقبوضاً عليه ..

وخرج من البيت مقبوضاً عليه ..
وأحس كأنه يخرج من الحياة ..

...

وقد أستقبل رفعت البيومى في السجن باحترام كبير كأنه أحد كبار الزوار .. واطمأن بعد ساعات بأنه ليس هناك بإساءة معاملته .. وهو يعرف من أين تصدر هذه التعليمات .. أنها تصدر من الرئاسة نفسها .. ان كل ضربة كانت تقف على برعى محمود كانت تصدر بها الأوامر من الرئاسة أيام جمال عبدالناصر .. ولكن يبدو أن الرئاسة لن تأمر بإساءة معاملته ..

وقد وضعوه في زنزانة مع سجين واحد محترم .. انه الدكتور محمد علوان الأستاذ بالجامعة .. ورغم أنه لا يطبق أن يشاركه غريب في غرفة واحدة حتى لو كانت زنزانة .. ولكن ليحمد الله على أنه غريب محترم .. وكان كل المساجين في هذا السجن من المقبوض عليهم سياسياً .. ورغم أن هذا يرفع من مستوى السجن ويؤلف بين المساجين الا أنه لا يريد أن ينسب إلى هؤلاء السياسيين ويعتبر كأنه واحد منهم .. أنه شئ آخر .. شئ أعلى وأهم وأخطر .. ورغم أن أبواب الزنازين كانت مفتوحة والمساجين أحرار في اختلاطهم بعضهم ببعض إلى أن تقفل الأبواب في الساعة السادسة الا أنه كان حريصاً متعززاً في الاختلاط ببقية المساجين السياسيين .. حتى أن الجميع كانت تصلهم الأطعمة من بيوتهم

فيمدونها على بطانية تفرش على الأرض .. كل منهم يضع ماوصله بجانب ماوصل الآخر حتى يشتركوا كلهم في طعام واحد وكأنها وليمة شعبية .. وكان هو يصل اليه الطعام من البيت وكانت زوجته تبالغ في اختيار الأنواع وتحديد الكميات .. بل انها أرسلت له يوما طبقا من « السمون فيميه » .. السمك المحبب اليه .. وثلاثة علب من الكافيار .. ولم يكن يضع ماوصله أبدا بجانب ماوصل الآخرين .. يشترك في الوليمة الشعبية .. بل كان يحتفظ بما يصله في زنتائه ويدعو اليه واحد أو اثنين ممن يختارهم من المساجين .. احتفاظا بهيئته وعلو شأنه .. وربما لأنه يتفرز من تناول الطعام مع الآخرين .. أنه لا يستطيع أن ينزل إلى نفس المستوى الذي ولد فيه .. مستوى كفر البطيخ ..

وكان أول ماشغله يوم دخل السجن هو أن يبحث عن القوة المسيطرة على شئون المساجين حتى يكسبها ويعتمد عليها .. انها قوة مأمور السجن .. وقد استطاع أن يتقرب إلى المأمور ويكسبه .. حتى أنه أصبح يترك كل المساجين ملتفين حول بعضهم البعض في فناء السجن ويجلس طول اليوم مع مأمور السجن في مكتبه .. والمأمور سعيدا متباهيا بأن يجالس شخصية هامة لها تاريخها كشخصية رفعت البيوى .. بل أن زوجته آمال بالاتصال بها أصبحت صديقة لزوجته المأمور .. صداقة لم تكلفها الا الهدايا السخية .. وكان أول ما حققه له المأمور هو أن نقل من زنتائه الدكتور محمد علوان .. أنه شخص محترم ولكنه مزعج لا يكف عن الكلام ومريض لا يكف

عن الشكوى .. وأصبح رفعت يقيم وحده في الزنزانة ولا يمكن أن يعتبر ذلك حبسا انفراديا يعذب به المساجين مادام باب الزنزانة يبقى مفتوحا طوال النهار .. بل أن المأمور ترك له الباب مفتوحا أثناء الليل حتى يخفف عن نفسه إذا أصابه الأرق .. وحدث تساهل عجيب في اجراء التفتيش الذي تنص عليه لوائح السجن على كل ما ترسله له زوجته .. لقد كانت ترسل له السيجار .. ويشرب البرمنت الذي يدمنه رغم أنه من أنواع الخمور .. بل أرسلت له عدة الحلاقة التي تعودها رغم أن الأمواس ممنوع دخولها في كل السجون .. لم تعد هناك ممنوعات لكل مايريد ..

لقد أصبحت زوجته آمال هي المسئولة الوحيدة عنه سواء خارج أو داخل السجن .. كأنه لم يعد له أحد غيرها في كل الدنيا .. وقد استطاعت أن تزوره في السجن قبل أن تتاح الزيارة لأهالي بقية المساجين .. وقالت له ما حدث بعد اعتقاله .. ان الوحيد الذي أعلن غضبه هو السفير الانجليزي .. وقد وصل إلى حد اعلان هذا الغضب والتصريح بلوم الحكومة وهو يبذل جهدا مستمرا من خلال اتصالاته حتى يفرج عنه ..

أما باقي من اتصلت بهم آمال من كبار المسئولين وكبار الشخصيات فرغم كل ما سمعته منهم من كلمات الرثاء كأنهم يعزونها في زوجها فان أحدا منهم لم يتحرك للافراج عنه .. بل لم يكن أحد

يفكر في الاتصال بها الا بعض موظفي مكاتبه وشركاؤه يضعون أنفسهم في خدمتها وكل منهم يتمنى ألا تكلفه بشيء ..

وبدأ رفعت يضيق بالسجن .. وبدأ اليأس يزحف عليه ويحطم أعصابه .. أنه سجن لنفس الأسباب التي سجن من أجلها برعى محمود أيام عبدالناصر .. ولكن برعى لم يبق في السجن الا عشرة أيام ثم أفرج عنه وتركوه يهرب .. وقد مضى عليه الآن أكثر من شهر دون أن يحس بأن حركة تثير الأمل .. وقد استدعوه يوما واحدا إلى مكاتب المخابرات للتحقيق معه .. أنهم بوجهون إليه نفس الأسئلة التي كان يعلم أنها وجهت إلى برعى محمود عندما حقق معه .. ولعله أجاب بنفس الأجوبة التي كان برعى قد أجاب بها .. بل أنه فوجئ بأن أسمعوه تسجيلات لمعظم أحاديثه التي كانت تجري في مكتبه وفي بيته .. وقد كان أحيانا يخطر على باله بأنه يحاط بآلات التسجيل حتى وهو في عز مجده أيام عبدالناصر ولكنه كان من الغرور وربما من الغباء أنه لم يحاول أبدا أن يبحث عن هذه الآلات ليرفعها من مكانها أو يفسدها .. أن برعى محمود كان في مثل غيباءه ولم يحاول أن يبحث عن آلات التسجيل التي كانت تحاصره ..

ان كل أمله كما يفهم من اتصالات زوجته ورغم مضي كل هذه الأيام ينحصر في السفير البريطاني .. ولكن السفير لن يستطيع أن يصل إلى شيء الا إذا اتصلت لندن بواشنطن وتدخلت واشنطن

للافراج عنه كما أفرجت عن برعى محمود .. أنه صديق حليفها بريطانيا ورجلها الوحيد .. وقد استطاعت زوجته باصرارها أن تتصل برعى كأنها اتصلت بأمريكا .. ولكن برعى قال كلاما دائما بارعا وقال لها أنه واثق من أن التحقيق سيرته .. أي تحقيق .. أنه يعلم أن أي تحقيق لا يساوي أي شيء .. وهو لا يستطيع أن يأمل شيئا من برعى .. أنه ينتقم منه .. رغم أنه كان قد وافق على أن تتصل به زوجته عندما استشارته خلال زيارتها له في السجن ..

لعل برعى كان أذكى منه عندما هرب من مصر عقب الافراج عنه .. وهو كان يجب أن يهرب قبل القبض عليه وبمجرد اختفاء عبدالناصر ..

ولكن لنفرض أنه أفرج عنه فهل يهرب بعدها .. هل يهرب هو وزوجته وأولاده ويقيم في لندن التي نقل إليها مركز أعماله ولا يزال يمكنه أن يعيش فيها مستكلا كل شخصيته التي تعب في بنائها منذ أيام كفر البطيخ ..

أنه لا يدري ما سيكون عليه مصيره ..
ان كل ما يدريه اليوم أنه لا يزال في السجن ..

(تمت)

السفير البريطاني

السفير البريطاني (السفير)

٢٧٠٢٧ : نيفيل